المجلد الثامن والعشرون للعام ٢٠٢٤م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

وصية أكثم بن صيفي (ت٩ هـ =٦٣٠م) لبنيه ورهطه- دراسة بلاغية تحليلية-

The will of Aktham bin Saifi (d. 9 AH = 630 AD) to his sons and Rahta - an analytical rhetorical study -

بقلم الدكتور

محمد بلتاجي بلتاجي رزق العشري

مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

جامعة الأزهر - مصر

الترقيم الدولى/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الثاني من إصدار سبتمبر ٢٠٢٤م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٤/٦٩٤٠م

وصية أكثم بن صيفي (ت ٩هـ = ٦٣٠م) لبنيه ورهطه- دراسة بلاغية تحليلية-

محمد بلتاجي بلتاجي رزق العشري

قسم البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود ـ جامعة الأزهر ـ مصر

البريد الإلكتروني: mohmmedbeltagy.2034@azhar.edu.eg

الملخص

يقف هذا البحث وقفة متأنِّية مع وصية جليلة القدر عظيمة الشأن خرجت من فِيِّ رجل من المُعمِّرين الذين عركوا الحياة وخبروا حالها، وعاشوا خيرها وشرَّها، وذاقوا حلوها ومُرَّها ممَّا كوَّن عنده ثروة معرفيَّة ضخمة أهَّلته ليكون قائد أهله وواعظهم وحاديهم إلى كُلِّ ما يضمن لهم العزَّة والرفعة والرقي.

جاءت هذه الوصية لتعبر صراحة عمَّا يمتلكه الإنسان العربي من أخلاق حميدة وصفات نبيلة.. ساق أكثم بن صيفي لأهله في وصيته هذه الأمرَ بمكارم الأخلاق، وضرورة التروِّي والمشاورة قبل الإقدام على أي فعل، وحذَّرهم من العجلة والحسد والطمع، وتقديم المال على العِرض، وكلُّ هذه القيم التربوية جاء الإسلام فأكد عليها ورغَّب فيها، فالوصية إذن متوافقة مع الفطرة السليمة التي فطر الله تعالى عباده عليها.

كلُّ هذا ساقه أكثم في أسلوب خلَّاب قوي، ضمَّنه كثيرًا من المعاني التربوية السَّامية في ثوب بلاغي بديع كان له أبرز الأثر في إبراز المعنى المراد؛ فانتقى من الكلمات ما يناسب المقام، وكوَّن منها سبائك تشهد له بالبراعة والإحكام في صناعة البيان؛ ممَّا جعل هذه الوصية جديرة بالتمحيص والدراسة؛ لإبراز الدور المهم للبلاغة العربية وأثرها الفعَّال في تأدية المراد عند هؤلاء القوم الذين عُرفوا بالبلاغة، ونزل الذكر الحكيم متحدِّيًا لهم.

وقد انتظم البحث في مقدمةٍ عرَّفت فيها بالبحث وأهميته ومنهجه وخطته، وتمهيد عرفت فيه بالوصية وذكرت أنواعها، ثم عرفت بأكثم بن صيفي، وثلاثة مطالب: المطلب الأول بلاغة التعبير عن معاني الخوف على أهله في وصيته، والمطلب الثاني: بلاغة التعبير عن معاني السمو والرفعة في وصيَّته، الثالث: السمات العامة في الوصية، ثم خاتمة البحث ومراجعه.

والله أسأل أن ينفع بهذا البحث البلاد والعباد إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الكلمات المفتاحية: وصية – أكثم بن صيفي. دراسة– بلاغية.

The will of Aktham bin Saifi (d. 9 AH = 630 AD) to his sons and Rahta - an analytical rhetorical study -

Mohamed Beltagy Beltaji Rizq Al , Ashri
Department of Rhetoric and Criticism - Faculty of Language Arabic Itay Al-Baroud - Al-Azhar University - Egypt.
Email: mohmmedbeltagy.2034@azhar.edu.eg

Abstract

Lecturer of This research stands and pause carefully with the commandment of great destiny came out of the man of the centenarians who knew life and experienced its condition, and lived good and evil, and tasted sweet and bitter, which made him have a huge wealth of knowledge qualified him to be the leader of his family and preacher and Hadihm to everything that guarantees them pride and elevation and sophistication.

This commandment came to express explicitly the good morals and noble qualities of the Arab person. Aktham bin Saifi gave his family in his will this matter with good morals, and the need for deliberation and consultation before taking any action, and warned them of haste, envy and greed, and to provide money on offer, and all these educational values Islam came to confirm and desire, so the commandment is compatible with common sense that Allah Almighty has instilled his servants on .

All this was done by Aktham in a strong picturesque style, which included many sublime educational meanings in a wonderful rhetorical dress that had the most prominent impact in highlighting the intended meaning, so he selected from the words what suits the maqam, and the fact that they are alloys that testify to him with ingenuity and precision in the manufacture of the statement, which made this commandment worthy of scrutiny and study, to highlight the important role of Arabic rhetoric and its effective impact on performing what is meant by these people who were known for rhetoric, and the wise male came down challenging them.

The research was organized in an introduction in which I knew the research, its importance, methodology and plan, and a preamble in which it was known as the will and mentioned its types, then known as Aktham bin Saifi, and three demands: the first requirement is the eloquence of expressing the meanings of fear for his family in his will, and the second requirement: the eloquence of expressing the meanings of transcendence and elevation in his will, the third: the general features in the will, then the conclusion of the research and its references.

I ask God to benefit the country and the people with this research, as He is the guardian of that and is able to do it .

Keywords: Testament - Aktham bin Saifi. Rhetorical study.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ثم أما بعد

فمما لا شك فيه أن مطالعة اللغة العربية، ومدارسة أساليبها، والوقوف مع تراكيبها وما هي عليه من البلاغة والفصاحة والبيان خير معين على فهم القرآن وتدبره ومعرفة وجه الإعجاز فيه، وقد تنوعت وسائل التعبير في اللغة العربية عند هذا الجيل الفريد الذي نزل عليه القرآن متحدِّيًا، فرأينا الشعر بأغراضه المختلفة، ثم يأتي النثر وهو قسيم الشعر في التعبير عن متطلبات الحياة آنذاك، وقد تنوعت صور هذا النثر فرأينا الخطابة والكهانة والأمثال والحكم والوصايا، وكلها جاءت؛ لتسجل شهادة بالبراعة في الفصاحة والبلاغة لهذا الجيل الفريد.

وكان من توفيق الله- تعالى- لي أن وقعت عيناي على وصية جليلة القدر عظيمة الشأن، خرجت من فِيِّ رجل من المُعمِّرين الذين عركوا الحياة وخبروا حالها، وعاشوا خيرها وشرَّها، وذاقوا حلوها ومُرَّها ممَّا كوَّن عنده ثروة معرفيَّة ضخمة أهَّلته ليكون قائد أهله وواعظهم وحاديهم إلى كُلِّ ما يضمن لهم العزَّة والرفعة والرقي.

والذي يتأمل هذه الوصية يجدها تعبر صراحة عمَّا يمتلكه قائلها- أكثم بن صيفي- من الحكمة والعقل وعمق التجربة إلى جانب ما كان عليه من الفصاحة والبيان، فانتقى من الكلمات ما يناسب المقام، وكوَّن منها سبائك تشهد له بالبراعة والإحكام في صناعة البيان.

جاءت هذه الوصية غنيَّة بالفنون البلاغية، مفعمة بالأحاسيس متوهجة في العاطفة، متمتِّعة بالصدق في الإحساس والشعور، تجسد بصدق ما كان عليه الإنسان العربي من الأنفة والعزَّة والرضا والتفاني في حماية عرضه، فأحببت أن أقف مع هذه الوصية وقفة متأنية، معتمدًا على المنهج التحليلي أدخل من خلاله إلى

أدغال نصٍّ هذه الوصية.. أعايش كلماتها وأستخرج دررها، فبمثل هذه المعايشة في تحليل النصوص تسود البلاغة ويعلو شأنها، وترتقي فنونها التي تكسب الكلام صياغة خاصة، ومعاني خاصة تضمن بقاءه على هذا النحو من الخصوصية والفخامة، كما يضمن النصُ بقاء هذه الفنون البلاغية، فهذه الفنون" تحيا ما دامت تتقلب في أدغال النص، وتضرب في مجاهله، وتتولج بمهارة ورياضة ويقظة إلى خفي أحواله ودقيق خصائصه، وإذا عُزلت البلاغة عن هذا ذهبت قيمتها، وصارت علما عاطلًا. ولو حُفظت متونها؛ لأنَّ المقصود من العلم أن يستعمل. والتحليل هو ميدان استعمال البلاغة"(١).

ساق لهم " أكثم" في وصيته الأمرَ بمكارم الأخلاق وضرورة التروِّي والمشاورة قبل الإقدام على الفعل، وحذَّرهم من العجلة والحسد والطمع وتقديم المال على حساب طهارة العرض، وكلُّ هذه المعاني جاء الإسلام فأكد عليها ورغَّب فيها، فالوصية إذن متوافقة مع الفطرة السليمة التي فطر الله تعالى عباده عليها ممَّا يدل على نقاء قائلها، وأحقِّيَّتها بالنظر والدراسة؛ فهي تمثِّل بحقٍّ ما كان يتمتع به الإنسان العربي في العصر الجاهلي من الصفات الحميدة والأخلاق النبيلة والتي لا نكاد نجدها كثيرًا في عصر الانفتاح والتقدم.

كلُّ هذا وأكثر ساقه أكثم بن صيفي في أسلوب خلَّاب قوي ضمَّنه كثيرًا من المعاني السَّامية في ثوب بلاغي بديع كان له أبرز الأثر في إبراز المعنى المراد؛ ممَّا جعل هذه الوصية جديرة بالتمحيص والدراسة؛ لنرى الدور المهم للبلاغة العربية وأثرها الفعَّال في إبراز المراد عند هؤلاء القوم الذين عُرفوا بالبلاغة، ونزل الذكر الحكيم متحدِّيًا لهم.

هذا وقد انتظم البحث في مقدمةٍ عرفت فيها البحث وأهميته ومنهجه وخطته، وتمهيد عرفت فيه بالوصية وذكرت أنواعها، ثم عرفت بأكثم بن صيفي، وثلاثة

(١) خصائص التراكيب صـ٣٠، أ.د: محمد محمد أبو موسى، الناشر: مكتبة وهبة، الطبعة الثامنة ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

مطالب: المطلب الأول: بلاغة التعبير عن معاني الخوف على أهله في وصـــيته، والمطلب الثاني: بلاغة التعبير عن معاني السمو والرفعة في وصـــيَّته، المطلـــب الثالث: السمات العامة في الوصية، ثم خاتمة البحث ومراجعه.

هذا وأسأل الله- تعالى- أن يكون هذا العلم من العلم الذي يكتب بنبض الحياة، وألَّا يكون من هذه السطور التي كتبت على أكفان التاريخ، فمدارسة ما كـــان عليـــه العرب قديمًا، واستلهام شيمهم وقيمهم التي تتوافق مع تعاليم ديننا الحنيف من أهـــم الأمور التي تقوي صلة المسلم بتاريخه العريق، ومجده التليد، وتعود بهذا الجيل إلى ما كان عليه سلفه من الرُّقي المعرفي، والسمو الأخلاقي لا سيما في زمان كثُـــرت فيه المُلهيات والمغريات. والله تعالى من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

التمهيد

أولًا: وقفة مع تعريف الوصية وأنواعها:

قال الخليل بن أحمد:" وصي: والوَصاة كالوَصِيّة. والوِصايةُ مصدر الوَصيِّ، والفعل: أوصَيْتُ. ووَصَّيتُه تَوصيةً في المبالغة والكَثرة. وأما الوَصِيَّةُ بعدَ الموت فالعالي من كلام العرب أوصَى ويجوز وَصَى. والوَصِيَّةُ: ما أوصَيْتَ به. والوِصايةُ: فعِلُ الوَصِيِّ، وقد قيل: الوَصِيُّ الوِصايةُ"(١).

وقال ابن فارس:" الْوَاوُ وَالصَّادُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى وَصْلِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ. وَوَصَيْتُ الشَّيْءَ: وَصَلْتُهُ. وَيُقَالُ: وَطِئْنَا أَرْضًا وَاصِيَةً، أَيْ: إِنَّ نَبْتَهَا مُتَّصِلٌ قَدِ امْتَلَأَتْ مِنْهُ. وَوَصَيْتُ اللَّيْلَةَ بِالْيَوْمِ: وَصَلْتُهَا، وَذَلِكَ فِي عَمَلٍ تَعْمَلُهُ. وَالْوَصِيَّةُ مِنْ هَذَا الْقِيَاسِ، كَأَنَّهُ كَلَامٌ يُوصَى أَيْ يُوصَلُ. يُقَالُ: وَصَّيْتُهُ تَوْصِيَةً، وَأَوْصَيْتُهُ إِيصَاءً"(٢).

والوصية: عبارة عن كلِّ شيء يُؤمر بفعله أو ينهى عن فعله ويُعهد به في الحياة وبعد الموت، وتأتي كثيرًا للنصح والإرشاد كما في قوله تعالى:" وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ"(البقرة:١٣٢)

ومنه قوله تعالى:" وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ"(النساء:١٣١)، فالوصية إذن هي القول البليغ المؤثِّر الذي يتضمَّن حثًّا على السلوك الطيب النافع محبَّة فيمن تُوَجَّه إليه الوصية، أو رغبة في رفعة شأنه وجلبِ الخير له وبخاصة إذا صدرت من الوالد لبنيه وأهله.

وتعتبر الوصية من أفضل الأدلة على طول خبرة الموصِي في الحياة، وتدل على ملاحظاته الثمينة القيِّمة وعقله الواعي ونظرته الثاقبة، ولذلك فهي تُساق عادة

(١) معجم العين، مادة:(وصى).

(٢) مقاييس اللغة، مادة:(وصى).

على ألسنة الحكماء والوعاظ والمعمِّرين الذين عرفوا بكثرة تجاربهم واحتكاكهم بالواقع.

هذا وتتنوع هذه الوصية إلى وصية اجتماعية وأخرى سياسية وغير ذلك لكنها جميعًا تدور في فلك الأمر بفعل شيء أو النهي عن فعل شيء، وتلتقي كذلك في الغرض منها حيث يتحرَّى الموصِي كلَّ ما يجلب الرفعة والرُّقي للموصَى له.

ثانياً: وقفة مع سيرة أكثم العطرة:

أكثم بن صيفي بن رباح بن الحارث بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم التميميّ الحكيم المشهور وهو عمّ حنظلة بن الربيع بن صيفي الصحابيّ المشهور (١).

●تواترت الأخبار على طول عمره، فقيل: عاش خمسةً وتسعين عامًا، وبالغ أحدهم فقال: عاش مائة وتسعين عامًا، وقيل: بل عاش ثلاثمائة وثلاثين عامًا، قال ابن حجر: عاش أكثم ثلاثمائة وثلاثين سنة، وكان أبوه صيفي من المعمرين عاش مائتين وسبعين سنة، ويقال: بل عاش أكثم مائة وتسعين سنة. قلت: وأنشد له المرزبانيّ:

وإنّ امرأ قد عاش تسعين حجّة ... إلى مائة لم يسأم العيش جاهل

أتت مائتان غير عشر وفائها ... وذلك من مرّ اللّيالي قلائل (٢).

●كان أكثم نقيَ السريرة، محمود السيرة، سوي الفطرة، وقد أيده الإسلام العظيم في بعض أحكامه، جاء في صبح الأعشى أنَّ " أوّل من حكم أنَّ الولد للفراش في الجاهلية أكثم بن صيفيّ حكيم العرب، ثم جاء الإسلام بتقريره"(٣).

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٣٥٠/١.

(٢) المرجع السابق ٣٥٣/١.

(٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤلف: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري (ت: ٨٢١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ٤٩٦/١.

وكذلك تداخلت جمل من كلامه مع بعض أساليب القرآن الكريم، وبعض أساليب النبي الكريم- صلَّى الله عليه وسلَّم- ومن ذلك قوله في الوصية التي بين أيدينا- محل الدراسة-" وَمن سمَّع سُمِّع بِهِ" فإن ذلك وارد في كلامه - صلَّى الله عليه وسلَّم- إذ يقول:" «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ» (١).

●أما عن إسلامه فلم تتفق كلمة المؤرخين في هذه النقطة، فنرى بعضهم يحكم بأنه أدرك الإسلام، وجرت بينه وبين النبي- صلى الله عليه وسلم- مراسلات، ومن ثَمَّ عدَّه غيرُ واحد من المؤرخين بأنه من صحابة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال عنه أبو نعيم: أنه " مِنْ حُكَمَاءِ الْعَرَبِ، أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ، يُعَدُّ فِي الْحِجَازِيِّينَ"(٢).

ثم قصَّ ما كان بينه وبين النبي- صلى الله عليه وسلم- فقال: قَالَ: بَلَغَ أَكْثَمَ بْنَ صَيْفِيٍّ مَخْرَجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَرَادَ أَنْ يَأْتِيَهُ فَأَبَى قَوْمُهُ أَنْ يَدَعُوهُ، وَقَالُوا: أَنْتَ كَبِيرُنَا لَمْ تَكُنْ لِتَخِفَّ إِلَيْهِ، قَالَ: فَلْيَأْتِ مَنْ يُبْلِغُهُ عَنِّي، وَيُبْلِغُنِي عَنْهُ، فَانْتُدِبَ رَجُلَانِ، فَأَتَيَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: نَحْنُ رُسُلُ أَكْثَمَ بْنِ صَيْفِيٍّ، وَهُوَ يَسْأَلُكَ مَنْ أَنْتَ؟ وَمَا جِئْتَ بِهِ؟ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا مَنْ أَنَا، فَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَأَمَّا مَا أَنَا فَأَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»، قَالَ: ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: ٩٠] ، قَالُوا: ارْدُدْ عَلَيْنَا هَذَا الْقَوْلَ، فَرَدَّدَهُ عَلَيْهِمْ حَتَّى حَفِظُوهُ، فَأَتَيَا أَكْثَمَ، فَقَالَ: أَبَى أَنْ يَرْفَعَ نَسَبَهُ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ نَسَبِهِ فَوَجَدْنَاهُ زَاكِيَ النَّسَبِ، وَاسِطًا فِي مُضَرَ، وَقَدْ رَمَى إِلَيْنَا بِكَلِمَاتٍ قَدْ حَفِظْنَاهُنَّ، فَلَمَّا سَمِعَهُنَّ أَكْثَمُ قَالَ: أَيْ قَوْمِ، أَرَاهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَيَنْهَى عَنْ مَلَائِمِهَا، فَكُونُوا فِي هَذَا

(١) صحيح البخاري، كتاب: الرقاق، باب: الرياء والسمعة، رقم (٦٤٩٩).

(٢) معرفة الصحابة، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، ٣٤٢/١. تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

الْأَمْرِ رُؤَسَاءَ، وَلَا تَكُونُوا فِيهِ أَذْنَابًا، وَكُونُوا فِيهِ أَوَّلًا، وَلَا تَكُونُوا فِيهِ آخِرًا، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، فَأَوْصَى حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، فَقَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَبْلَى عَلَيْهِمَا أَصْلٌ، وَلَا يُهْتَصَرُ عَلَيْهِمَا فَرْعٌ، وَإِيَّاكُمْ وَنِكَاحَ الْحَمْقَاءِ؛ فَإِنَّ صُحْبَتَهَا قَذَرٌ، وَإِيَّاكُمْ وَأَعْيَانَ الْإِبِلِ؛ فَإِنَّ فِيهَا غِذَاءَ الصَّغِيرِ، وَجَبْرَ الْكَسِيرِ، وَفِكَاكَ الْأَسِيرِ، وَمَهْرَ الْكَرِيمَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ سُوءَ حَمْلِ الْغِنَى يُورَثُ مَرَحًا، وَإِنَّ سُوءَ حَمْلِ الْفَقْرِ يَضَعُ الشَّرَفَ، وَإِنَّ الْعُدْمَ عُدْمُ الْعَقْلِ لَا عُدْمَ الْمَالِ، وَإِنَّ الْوَحْشَةَ فِي ذَهَابِ الْأَعْلَامِ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَهْلِكَ امْرُؤٌ عَرَفَ قَدْرَهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَقْتَلَ الرَّجُلِ بَيْنَ لِحْيَيْهِ، يَا قَوْمُ لَا تَكُونُوا كَالْوَالِهِ، وَلَا تَوَاكَلُوا الرِّفْدَ؛ فَإِنَّ تَوَاكُلَ الرِّفْدِ عَلَمٌ لِلْخِذْلَانِ، وَدَاعِيَةٌ لِلْحِرْمَانِ، وَمَنْ سَأَلَ فَوْقَ الْقَدْرِ اسْتَحَقَّ الْمَنْعَ، وَاعْلَمُوا أَنَّ كَثِيرَ النُّصْحِ يَهْبِطُ عَلَى كَثِيرِ الظِّنَّةِ، وَأَنَّ قَوْلَ الْحَقِّ لَمْ يَتْرُكْ لِي صَدِيقًا"(١). وسار على هذا الكلام ابن الأثير في أسد الغابة (٢).

●في حين نرى البعض أخرج أكثم من دائرة الصحابة كما فعل ابن عبد البر في الاستيعاب وذلك إذ يقول: ولم نذكر أكثم بن صيفي؛ لأنه لم يصح إسلامه في حياة رسول الله- صلى الله عليه وسَلَّمَ-، وقد ذكره أبو علي بن السكن في كتاب الصحابة فلم يصنع شيئًا... ثم ذكر الخبر السابق ذكره عند أبي نعيم وعلَّق عليه قائلًا:" وَلَيْسَ فِي هَذَا الْخَبَرِ شَيْءٌ يَدُلُّ عَلَى إِسْلامِهِ، بَلْ فِيهِ بَيَانٌ وَاضِحٌ أَنَّهُ إِذْ أَتَاه الرَّجُلانِ اللَّذَانِ بَعَثَهُمَا إِلَى النَّبِيِّ- صَلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّمَ-، وَأَخْبَرَاهُ بِمَا قَالَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ، وَمِثْلُ هَذَا لا يَجُوزُ إِدْخَالُهُ فِي الصحابة وباللَّه التوفيق(٣).

---

(١) معرفة الصحابة١/٣٤٢

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة ١/٢٧٢، المؤلف: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ)، المحقق: علي محمد معوض – عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، سنة النشر: ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١/١٤٥-١٤٧، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت: ٤٦٣هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م. بتصرف.

وتعقب ابن حجر ما قاله ابن عبد البر، فقال:" قال ابن فتحون: قد ذكره الباورديّ في الصحابة كما ذكره ابن السكن. وأخرج الخبر عن إبراهيم بن يوسف. عن المنكدر، لكن قد ذكره الأموي في المغازي قال: حدثني عمي عن عبد اللَّه بن زياد، حدّثني بعض أصحابنا، عن عبد الملك بن عمير- نحوه. وزاد أنه قرّب له بعيره، فركب متوجّها إلى النبي صلّى اللَّه عليه وسلم، فمات في الطريق. قال: ويقال نزلت فيه هذه الآية:" وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ... [النساء: ١٠٠] الآية.

وعبد اللَّه بن زياد هو ابن سمعان أحد المتروكين، فهذا لو صحّ لكان حجّة على ابن عبد البرّ في كونه أسلم، ويكون على شرطه في إخراجه أمثاله في كتابه ممن لم يلق النبيّ صلّى اللَّه عليه وسلم.

وقد وجدت له شاهدًا ذكره أبو حاتم السجستانيّ في كتاب المعمّرين، عن عمرو بن محمد السعديّ، عن عامر الشعبيّ، قال: سألت ابن عباس عن هذه الآية، فقال: نزلت في أكثم بن صيفي قلت: فأين الليثي؟ قال: كان هذا قبل الليثي بزمان، وهي خاصة عامة.

وروى أبو حاتم أيضًا في المعمّرين عن رشدين بن كريب، عن أبيه عن ابن عباس- أن الآية المذكورة نزلت فيه.

وقال الأصمعيّ: حدّثنا أبو حاضر الأسديّ، عن أبيه. قال: كان فيما أوصى به أكثم بن صيفي ولده عند خروجه إلى النبيّ- صلّى اللَّه عليه وسلم-.... فذكر قصته"[(١)].

وكذلك لم ترددت كلمة المفسرين حول مَنْ المراد في الآية السابقة بين أكثم وغيره، " والذي يطمئن إليه المرء من كل هذه التضاربات والاختلافات أمر واحد، هو أنَّ أكثم ابن صيفي قد تلقى الإسلام تلقيًا حسيًّا يتناسب مع عقله وحكمته، وكانت

(١) الإصابة في معرفة الصحابة ١/٣٥١.

نيَّته صادقة في الإسلام، لا فرق في ذلك أن يكون خرج مهاجرًا أو لم يخرج، فالوفاة هي التي حالت بينه وبين تحقق أي من الخروج في بعض الروايات، وتمام الهجرة في غيرها من الروايات، وبذلك لا يكون ممن امتنعوا عن الخروج إلى النبي – صلى الله عليه وسلم– ليبايعوه على الإسلام، ويبقى الأمر معلَّقًا بنيَّته، وكما هو معلوم أن الأعمال بالنيَّات، ولكل امرئ ما نوى، والله تعالى أعلى وأعلم"[١].

وبعد حياة حافلة بالعطاء ممتلئة بالتجارب المختلفة وُسِّدَ أكثمُ بن صيفي في التراب وقد خلَّف تراثًا ضخمًا من الوصايا والحكم والمواعظ والمأثورات يستحق التسجيل والإعجاب والدراسة والتفحيص لا سيما وهو يتماشى مع تعاليم الإسلام السمحة، وكانت وفاته في السنة التاسعة من هجرة المصطفى– صلى الله عليه وسلم– الموافق سنة ٦٣٠من الميلاد [٢].

(١) أكثم بن صيفي ومأثوراته صـ٤٣، تأليف: أد/ كاظم الظواهري، بدون تاريخ.

(٢) الأعلام لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت: ١٣٩٦هـ) ٦/٢، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر ٢٠٠٢ م.

نصُّ الوصيَّة

أخبرنَا أَبُو أَحْمد عَن أَبى بكر عَن أبي حَاتِم عَن أبي عُبَيْدَة قَالَ: قَالَ أَكْثَم بن صَيْفِي: يَا بني تَمِيم لَا يفُوتَنَّكُمْ وَعْظِي إِنْ فَاتَكُمْ الدَّهْرُ بنفْسِي، إِنَّ بَيْنَ حَيْزُومِي وَصَدْرِي لَبَحْرًا مِنَ الْكَلِمِ، لَا أَجِدُ لَهُ مواقِعَ غَيْرَ أَسْمَاعِكُمْ، وَلَا مَقَارَّ إِلَّا قُلُوبَكُمْ فَتَلَقُّوْهَا بِأَسْمَاعٍ صَافِيَة، وَقُلُوبٍ وَاعِيَةٍ، تَحْمِدُوا عَوَاقِبهَا: إِنَّ الْهَوَى يَقْظَانُ، وَالْعقلَ رَاقِدٌ، وَالشَّهَوَاتِ مُطلَقَةٌ، والحزم مَعْقُول، وَالنَّفس مُهْملَة، والروية مُقَيّدَة، وَمَنْ يَجْهَلْ التَّوَانِي، وَيَتْرُكْ الرَّوِيَّةَ يُتْلِفْ الحَزْمَ. ولَنْ يَعْدِمَ المُشَاوِرُ مُرْشِدًا، وَالمُسْتَبِدُّ بِرَأْيِهِ مَوْقُوفٌ عَلَى مَدَاحِضِ الزَّلَلِ، وَمَنْ سَمَّع سُمِّع بِهِ، وَمَصَارِعُ الْأَلْبَاب تَحْتَ ظِلَالِ الطَّمَعِ، ولَو اعْتُبِرَتْ مَوَاقِعُ المِحَنِ، مَا وُجِدَتْ إِلَّا فِي مَقَاتِلِ الْكِرَامِ، وعَلَى الِاعْتِبَار طَرِيقُ الرَّشَادِ، وَمَنْ سَلَكَ الجُدَدَ أَمِنَ العِثَارِ، ولَنْ يَعْدِمَ الحَسُودُ أَنْ يُتْعِبَ قَلْبَهُ، وَيُشْغِلَ فِكْرَهُ، وَيُثِيْرَ غَيْظَهُ، ولَا يُجَاوِزُ ضُرُّهُ نَفْسَهُ.

يَا بَنِي تَمِيم: الصَّبْرُ عَلَى جُرعِ الْحِلْمِ، أَعْذَبُ مِنْ جَني ثَمَر النَّدَم، وَمَنْ جَعَلَ عِرْضَهُ دُونَ مَالِهِ، استَهْدَفَ الذَّمَ، وكَلْمُ اللِّسَانِ، أَنْكَى مِنْ كَلْمِ الحُسَامِ، وَالكَلِمَةُ مَرْهُونَةٌ مَا لَمْ تَنْجُمْ مِنْ الْفَمِ، فَإِذَا نَجمَتْ فَهِيَ سَبْعٌ مُحَرَّبٌ، أَو نَارٌ تَلَهَّبُ، ولِكُلِ خَافِيَةٍ مُخْتَفٍ، وَرَأىُ النَّاصِحِ اللَّبِيْبِ دَلِيلٌ لَا يَجُورُ، وَنَفَاذُ الرَّأْيِ فِي الْحَرْبِ، أَنْفَذُ مِن الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ"(١).

(١) جمهرة الأمثال ٢٥٦/٢، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت، ونثر الدر في المحاضرات٢٤٨/٦، المؤلف: منصور بن الحسين الرازي، أبو سعد الآبى(ت: ٤٢١هـ)، المحقق: خالد عبد الغني محفوظ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت /لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م.

المطلب الأول: بلاغة التعبير عن معاني الخوف على أهله في وصيته

كي تحقِّق أيُّ وصية الغرض منها لا بُدَّ أن يضمنها قائلها ما يثبت للسامعين مدى خوفه عليهم، وشفقته بهم، وقد تعددت صور هذه المعاني وبدت جليَّة في وصيَّة أكثم لأهله، فعند مطالعة هذه الوصية نرى أكثم يناديهم ويخاطبهم بأرق العبارات التي تجسد هذه المعاني، يضرب بكلماته العالية بنبرة حانية على أوتار قلوبهم، ويشعرهم أنه الوالد الحاني والناصح اللبيب الذي يتألم لألمهم، وينطلق في وصيَّته من هذا المنطلق، ثم تتكرر هذه النبرة الحانية في ثنايا الوصية، فنراها تعلو تارة وتخفو أخرى؛ لتمثل بصدق ما كان عليه أكثم من القلق والخوف على أهله، وأظهر لهم ذلك؛ ليستميل قلوبهم وعقولهم للأخذ بوصيَّته وهذا ما سيظهر جليًّا في ثنايا التحليل.

وانظر إلى كلامه في بداية وصيَّته:" يَا بني تَمِيم لَا يَفُوتَنَّكُمْ وَعْظِي إِنْ فَاتَكُمْ الدَّهْرُ بِنَفْسِي، إِنَّ بَيْنَ حَيْزُومِي وَصَدْرِي لَبَحْرًا مِنَ الْكَلِمِ، لَا أَجِدُ لَهُ مَوَاقِعَ غَيْرَ أَسْمَاعِكُمْ، وَلَا مَقَارَّ إِلَّا قُلُوبَكُمْ فَتَلَقُّوْهَا بِأَسْمَاعٍ صَافِيَة، وَقُلُوبٍ وَاعِيَةٍ، تَحْمِدُوا عَوَاقِبَهَا" تجده كله حنوًّا عليهم، ومحبة لهم، ومع الوقفة المتأنية لهذه الجزئيَّة من الوصية سيظهر مدى خوفه عليهم ومدى محبته لهم، وكيف ساق لهم هذه المعاني السامية ببراعة عالية.

التحليل البلاغي:

إنَّها وصية من رجل مجرِّب، عَرَك الحياةَ وعركته، مشى فيها على الأشواك، وشرب من عصارة تجاربه بعد أن نيَّف على الخمسين ومائة نام على فراش الموت وساق وصيته لبنيه ورهطه، وهو الحريص على رفعتهم ورقيِّهم وتفردهم بالمآثر والمحامد.

فجمعهم حوله ثم ناداهم بالأداة التي ينادى بها البعيد مع قربهم منه؛ ليلفت أنظارهم إليه، ويوجِّه قلوبهم له، وليدركوا أن هذا الأمر الذي يأتي خلف النداء معنيٌّ به جدًا فهو غاية في الأهميَّة، قال صاحب الكشاف:" و«يا» حرف وضع في

أصله لنداء البعيد، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه. وأما نداء القريب فله أي والهمزة، ثم استعمل في مناداة من سها وغفل وإن قرب. تنزيلًا له منزلة من بعد، فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معنىّ به جداً"(١).

ثم أنَّه جعلهم يقبلون عليه أكثر فناداهم بلفظ البُنوَّة، ومعلوم أنَّ الوالد أحرص الخلق على ولده؛ لأنَّه قطعة منه، ولذا لم نجد في القرآن الكريم كثيرًا من الآيات التي توصي الآباء بأبنائهم اللهم إلَّا ما وجدناه في آية الميراث" يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ"(النساء:١١) في حين زخر القرآن الكريم بمواضع كثيرة وصَّت الأبناء على الآباء، فأكثم جمع بنيه وأهله، وناداهم بلفظ البنوة، وأضافهم إليه إضافة شفقة ورحمة ومحبَّة للخير وبهذا يتأنى له كمالُ الإصغاء من أول وهلة في كلامه، ولم يقتصر في مقدمته على ذلك بل ضمنها ما يجعلهم مقبلين عليه أكثر وأكثر، فقال:" **لَا يفوتنكم وعظي**"

الْفَوْتُ:" بُعْدُ الشيء عن الإنسان بحيث يتعذّر إدراكه"(٢) نهاهم أن يضيِّعوا هذا الوعظ الذي فيه كمالُهم ومآثرُهم، والنهي هنا خرج إلى النصح والإرشاد، ومجيء التعبير بالفعل المضارع لدلالته على التجدد والاستمرار، واستحضار صورة هذا الوعظ وجعل هيئة هذا الوعظ ماثلةً أمام أعينهم فيتمسكوا به لا يفارقونه أبد الآباد.

وإسناد الفوت إلى الوعظ من قبيل المجاز العقلي، فالوعظ لا يفوت إنَّما يفوت زمنه الذي قِيل فيه، والتعبير بالمجاز يعكس ما لهذا الوعظ من المكانة والأهمية والعزة بحيث إنه لا ينتظر منهم أن يتركوا الانتفاع به إنما يفوت ويرحل عنهم إذا علموا ذلك ازدادوا به عناية وتمسُّكًا، وقد تعدى الفعل إلى مفعوله وهو الكاف في لا يفوتنكم، وهذا ما يسمى بالإحالة الداخلية، وهي عودة الضمير على مذكور قبله،

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٨٩/١.

(٢) المفردات في غريب القرآن مادة:(فوت).

وهي عامل مهم جدًا من عوامل التماسك النصي، وهذا أدعى إلى قبول نصحه ووعظه.

وقوله:" **إن فاتكم الدَّهْر بنفسي**" جملة موحية مبكية تصف حالته التي يقول فيها هذه الوصيَّة، والتعبير بـ"إن" التي هي للشك والتردد تكشف ما بداخل المرء من محبة للبقاء في الدنيا والأمل في الحياة، وألمح – أيضًا– من التعبير بها أنَّه يُلِّمح إلى عدم انتفاعهم بما يحدث في الدهر من تبدل الحال لذا جهر لهم بهذه الوصية، ثم إنَّه ولي " إن" بالفعل الماضي؛ للدلالة على تحقق ذهاب يومه وغده وإن كان له فيه رغبة، فأيامه ولَّت وانقضت ولن يجدوه بعد هذه الوصية فليحفظوها إذن وليعوها.

وإسناد الفوت للدَّهر مجاز عقلي لعلاقة الزمانية، فالدهر هنا فاعل بنفسه، وقد عدا على عمر الموصِي ونفْسِه فأكلهما، وإضافة نفسي إلى ضمير المتكلِّم فيه من التَّحسر على فوات هذا العمر ما فيه، وكلُّ هذه الجملة ترشح عملية الإقبال عليه والإنصات له والأخذ بوصيته.

وقوله:" **إن بَين حيزومي وصدري لبحرًا من الْكَلم**"

بدأ هذا الكلام بأسلوب التوكيد ليؤكد لهم مضمون كلامه ويقرره في نفوسهم، ومن الممكن أن نجعل التوكيد مما ينظر فيه المتكلم إلى حال نفسه ومدى انفعاله بهذه الحقائق، وحرصه على إذاعتها وتقريرها في النفوس كما أحسها مقررة أكيدة في نفسه [١]، لأنَّها خلاصة حياته وعصارة عمره، والتوكيد يعكس مدى صدقه في خوفه عليهم ويثبت إخلاصه لبنيه وأهله.

والحيزوم (حَزَمَ) الْحَاءُ وَالزَّاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ شَدُّ الشَّيْءِ وَجَمْعُهُ، قِيَاسٌ مُطَّرِدٌ. فَالْحَزْمُ: جَوْدَةُ الرَّأْيِ، وَكَذَلِكَ الْحَزَامَةُ، وَذَلِكَ اجْتِمَاعُهُ وَأَلَّا يَكُونَ مُضْطَرِبًا مُنْتَشِرًا، وَالْحِزَامُ لِلسَّرْجِ مِنْ هَذَا. وَالْمُتَحَزِّمُ: الْمُتَلَبِّبُ. وَالْحُزْمَةُ مِنَ

(١) خصائص التراكيب صـ١٢٧، أد/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط/٨ ١٤٣٠ه/٢٠٠٩م. بتصرف.

الْحَطَبِ وَغَيْرِهِ مَعْرُوفَةٌ. وَالْحَيْزُومُ وَالْحَزِيمُ: الصَّدْرُ ؛ لِأَنَّهُ مُجْتَمَعُ عِظَامِهِ وَمَشَدُّهَا"(١).

وفي اللسان:" والحَيْزُومُ وسط الصدر وما يُضَمُّ عَلَيْهِ الحِزامُ حَيْثُ تلتقي رؤوس الجَوانح فَوْقَ الرُّهابةِ بحِيالِ الكاهِلِ"(٢).

والصدر معروف، والتعبير ينم عن رجل شدَّ الحياة وعركها وجمع ما فيها من عبر يريد أن يسوقها لأهله.

والتعبير – أيضًا– كناية عن قرب خروج روحه مع اتِّساع الكلمات التي يريد أن يوصيهم بها، ولذلك كان التعبير بلفظ البحر وهو من قبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، حيث شبه غزارة الكلمات التي يريد أن يبثَّها في وصيته لأهله بالبحر، وإذا نظرنا إلى سعة البحر نجد أن الاستعارة صوَّرت هذا الكم الهائل من التجارب الشخصية، والمواقف الحياتية التي خاضها أكثم بن صيفي وكوَّنت عنده هذا الموروث المعرفي الضخم. وإذا نظرنا إلى الخير العظيم والنفع العميم الذي يقدِّمه البحر لقاصديه نجد أنَّ الاستعارة عكست ما لهذه الوصية الخالدة من النفع العميم لأهله إذا أخذوا بها.

وقوله: **من الكلم**" بيَّن أن البحر الذي يقع بين الحيزوم والصدر ليس بحرًا حقيقيًا، إنما هو بحر من الكلم، وإذا كان علماء اللغة قد عرفوا الكلم بأنه ما زاد عن كلمتين سواء أفاد معنى أم لم يفد، فكذلك الكلم الذي بين حيزوم أكثم وصدره من الممكن أن يتلقوه بنوه بعدم اهتمام فلا ينتفعون به، ومن الممكن أن يفيد معاني كثيرة ينتفعون به في قابل أيامهم.

والجملة تقدَّم فيها ذكر المسند على المسند إليه، فقدَّم قوله:" بين حيزومي وصدري" على قوله:" لبحرًا" وفي هذا التقديم تخصيص للمسند بالمسند إليه إلى جانب ما في التقديم من مزيد الرعاية والاهتمام

---

(١) مقاييس اللغة مادة:(حزم).

(٢) لسان العرب مادة:(حزم).

لقد بحث أكثم طويلًا لينظر إلى مَن يُلقي إليه مواعظه ووصاياه فأدرك أن أحق الناس بها هم أهله وذويه، فقال لهم: " **لَا أجد لَهُ مواقع غير أسماعكم، وَلَا مقار إِلَّا قُلُوبكُمْ**"

وهذه جملة خبرية مبدوءة بالنفي، والنفي من الأمور التي تثير العقل وتحركه نحو المطلوب ولذا فهو طريق من طرق" التشويق التي تثبِّت المعاني وتمكنها في النفوس لأنَّ النَّفس تتطلع عند وقوع النفي إلى معرفة أسبابه، وتنشغل بالبحث في مضمون الجملة التي وقع فيها النفي، وهذا من شأنه تأكيد المعنى وتمكينه"(١).

والتعبير بالفعل المضارع " أجد" دال على التجدد والاستمرار إلى جانب ما في مجيء الفعل من مادة الوجود من إثارة لعاطفتهم ومشاعرهم؛ لأنَّ الفعل "وَجَدَ" في أصل اللغة موضوع لما ضاع أو لما يجري مجرى الضائع في أن لا يعرف موضعه (٢). وورد في المقاييس أن " الْوَاوُ وَالْجِيمُ وَالدَّالُ، يَدُلُّ عَلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الشَّيُّ يُلْفِيهِ"(٣). أي أنه بحث طويلًا في أسماع القوم وقلوبهم فلم يجد من بني جلدته إلَّا أهله وأقرباءه فساق لهم وصيته لأنهم أحقُّ الناس بها.

وتقديم الجار والمجرور" له" للاهتمام بشأن هذا الكلم الذي سيقوله، والضمير يعود على الكلم، وعبر عنه بالضمير لكونه مذكورًا قبل ذلك فهذا مما جاء على الأصل.

ومجيء المفعول " مواقع" في صورة جمع التكسير يتناسب مع كثرة أهله وبنيه لا سيما والرجل عمَّر طويلًا ورأى من أحفاده كثيرًا.

هذا وقد جاء الأسلوب عمومًا في ثوب أسلوب القصر من باب قصر الصفة على الموصوف بأقوى أساليب القصر وهو طريق النفي والاستثناء غير أنَّه

---

(١) التشويق في الحديث النبوي صـ٧٣، أد/ بسيوني فيود.

(٢) الفروق اللغوية صـ٥٦٨ بتصرف.

(٣) مقاييس اللغة مادة:(وجد).

استعمل" غير" مكان إلَّا. وغير اسْم ملازم للإضافة فِي الْمَعْنى وَيجوز أَن يقطع عَنْهَا لفظا إِن فهم الْمَعْنى [١].

وإذا راعينا أنَّ كلمة" غير" تفيد الاسميَّة، ومن سمات الاسم أنَّه دالٌّ على الثبوت والدوام أدركنا أنه يريد من أهله أن يثبتوا الكلمات التي يوصيهم بها في مواقعها التي أرادها لا تفارقها أبدًا، والغرض من القصر التأكيد أن تكون هذه الوصية عنده بمنزلة الثابت المقيم الذي لا يرتحل أبدًا.

ومجيء" الأسماع" مجموعة يتناسب مع دلالة الجمع في " مواقع"، ثم عطف على هذه الجملة جملة أخرى على حذوها في هيئتها وتركيبها في إفادة معنى القصر بالطريق نفسه- النفي والاستثناء-، فقال:" **ولَا مقار إِلَّا قُلُوبكُمْ**" والعطف بين الجملتين لاتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى فبينهما توسط بين الكمالين إلى جانب اتفاقهما في الغرض العام، وهو الحث عل حسن الإصغاء وحسن الأخذ بوصيته.

والمقار" الْقَافُ وَالرَّاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، يَدُلُّ أَحَدَهُمَا عَلَى بَرْدٍ، وَالْآخَرُ عَلَى تَمَكُّنٍ.

فَالْأَوَّلُ الْقُرُّ، وَهُوَ الْبَرْدُ.، وَالْأَصْلُ الْآخَرُ التَّمَكُّنُ، يُقَالُ قَرَّ وَاسْتَقَرَّ.. وَالْقَرُّ: صَبُّ الْكَلَامِ فِي الْأُذُنِ"[٢]. والتعبير بالمقار من قبيل المجاز فقد ورد في أساس البلاغة:" وقرّ الكلام في أذنه إذا وضع فاه على أذنه فأسمعه وهو من قرّ الماء في الإناء إذا صبّه فيه"[٣]، وعليه فإنَّه أراد أن يتمكَّن الكلامُ من قلوبهم، ويكون في حكم الثابت الذي لا يتغير هذا بملاحظة المعنى الثاني، أما المعنى الأول وهو" البرد" فإن هذه الوصية إذا ما تلقوها بأسماعهم وتمكنت في قلوبهم وعملوا بها في حياتهم فإنها ستنزل عليها كما ينزل البرد على القلوب الظامئة الباحثة عن الماء ففيها من عظيم النفع ما لا يحصى.

---

(١) مغني اللبيب صـ٢١٠.

(٢) مقاييس اللغة مادة:(قرَّ).

(٣) أساس البلاغة مادة:(قرر).

هذا ومجيء المواقع مع الأسماع والمقار مع القلوب أمر في غاية التناسب إذ الخطوة الأولى أن يجد الكلام موقعًا يقع فيه وطريقًا يسلكه، ثم يتحول بعد ذلك من موقعه الأول إلى المكان الذي يتمكن فيه وهو القلب، والكلام إذا تمكَّن من القلب كان العمل به ملزِمًا لا يحيد عنه صاحبه أبدًا. وعليه فأكثم بن صيفي يصور من خلال هذه الجمل الرحلة التي يقطعها الكلام ويرصدها رصدًا دقيقًا منذ أن خرج من فيِّ صاحبه مرورًا بأسماع مَنْ يتلقونه وصولًا إلى مقرِّه الأخير وهو قلوبهم.

لكنَّ السؤال الآن: هل هذه العملية التواصلية تتأتى لكل سامع؟ أم أنها تحتاج إلى سمع مخصوص وقلب مخصوص؟ هذا ما أجاب عليه أكثم نفسه وذلك إذ يقول بعد ذلك:" **فتلقوها بأسماع صَافِيَة، وَقُلُوب وَاعِيَة، تحمدوا عواقبها**"

اقتران الجملة بالفاء الدالة على التعقيب والسرعة فيه حث لهم على سرعة المبادرة وكمال الإصغاء، والتعبير بالأمر في " تلقوه" خرج من معناه الحقيقي إلى معنى النصح والإرشاد؛ إذ هو في موقف ليس له إلَّا النصح والإرشاد، وهو موقف المودع، والضمير في " فتلقوه" يعود على الكلم الذي سيذكره وقد ورد ذكره قبل ذلك لذا عبَّر عنه بالضمير الغائب العائد عليه، وهذا أيضًا من الإحالة الداخلية التي تجعل النصَّ أكثر تماسكًا، وهذا أدعى إلى قبول وصيَّته.

" والأسماع الصَّافية" هي الَّتي لا كدر فيها يحجب سماعها، قال صاحب اللسان:" صَفَا: الصَّفْوُ والصَّفَاءُ، مَمْدودٌ: نَقِيضُ الكَدَرِ..، والصَّفَاءُ: مَصْدَرُ الشيءِ الصَّافِي. وَإِذَا أَخَذَ صَفْوَ ماءٍ مِنْ غدِيرٍ قَالَ: اسْتَصْفَيْتُ صَفْوَةً. وصَفَوْتُ القِدْرَ إِذَا أَخَذْتَ صَفْوَتَها. والمِصْفَاةُ: الرَّاوُوقُ. وَفِي الإِناءِ صِفْوَةٌ مِن مَاءٍ أَوْ خَمْرٍ أَي قَلِيلٌ. وصَفَا الجَوُّ: لَمْ تَكُنْ فِيهِ لُطْخَةُ غَيْمٍ. ويومٌ صافٍ وصَفْوانُ إِذَا كَانَ صَافِيَ الشَّمْس لَا غَيْمَ فِيهِ وَلَا كَدَرَ "[1]. ومجيء الأسماع مجموعة لتتناسب مع مجموع مَنْ حضر وصيته، ومجيئها منكَّرة لإفادة العموم، والتعبير بالأسماع هنا أنسب من التعبير بالآذان، لأنه يصور رحلة الكلام من بدايتها، فلكي يسير الكلام في طريقه إلى القلب

(١) لسان العرب مادة:(صفا).

يتطلَّب الأمر سمعًا صافيًا لا ختم عليه، وهو ما نصَّ عليه أكثم، والسمع الذي خُتم عليه لا ينتفع بشيء، قال تعالى:" خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ"(البقرة:٧) قال الزمخشري- رحمه الله تعالى:" فإن قلت: ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار؟ قلت: لا ختم ولا تغشية ثم على الحقيقة، وإنما هو من باب المجاز، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل. أما الاستعارة فأن تجعل قلوبهم لأنَّ الحق لا ينفذ فيها ولا يخلص إلى ضمائرها من قبل إعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده، وأسماعهم لأنها تَمُجُّه وتنبو عن الإصغاء إليه وتعاف استماعه كأنها مستوثق منها بالختم، وأبصارهم لأنها لا تجتلى آيات اللَّه المعروضة ودلائله المنصوبة كما تجتليها أعين المعتبرين المستبصرين كأنما غطى عليها وحجبت، وحيل بينها وبين الإدراك. وأمّا التمثيل فأن تمثل حيث لم يستنفعوا بها في الأغراض الدينية التي كلفوها وخلقوا من أجلها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها بالختم والتغطية"(١).

فأكثم بن صيفي يحدد لنا الأسماع الَّتي تنتفع بما تسمعه، وهي التي لا يشغلها شيء عن السَّماع، ولا يوجد كدر يحول بينها وبين ما تسمع، فإذا سمعت هذه الأسماع المواعظ التي قيلت استحالت المواعظ إلى القلوب فوعتها وانتفعت بها، وهي ما تُسمَّى بـ" القُلُوب الواعية" وكما كان الأمر في مجيء الأسماع مجموعة ومنكرة جاء كذلك في القلوب، والوَعْيُ:" حِفْظ القلب الشيءَ. وعَى الشَّيْءَ وَالْحَدِيثَ يَعِيه وَعْياً وأَوْعاه: حَفِظَه وفَهِمَه وقَبِلَه، فَهُوَ واعٍ، وَفُلَانٌ أَوْعَى مِنْ فُلَانٍ أَي أَحْفَظُ وأَفْهَمُ. وَفِي الْحَدِيثِ: نَضَّر اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقالَتي فوَعاها، فرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سامِعٍ. قَالَ ابْنُ الأَثير: أَي عقَلَه إِيماناً بِهِ وعَمَلًا، فأَما مَنْ حَفِظ أَلفاظَه وضَيَّعَ حُدوده فإِنه غَيْرُ واعٍ لَهُ"(٢).

---

(١) الكشاف ٤٨/١، ٤٩.

(٢) لسان العرب مادة:(وعى).

وبين قوله:" بأسماع صَافِيَة، وَقُلُوب وَاعِيَة" مراعاة نظير، فالأسماع والقلوب من واد واحد، والصفاء والوعي- أيضًا- قرينان من واد واحد، فالأسماع تصفو والقلوب تعي، وبينهما أيضًا سجع متوازي حيث اتفقت الكلمتان في الوزن والقافية وكما هو معلوم أنَّ مكانة السجع لا ينكرها ذو عقل من الإنسان، يتلاعب بالعقول تلاعب الريح بالعيدان، ويجعل الجمل تترنَّم بأمتع النغمات التي تدفع الملل وتطرد الرَّتابة من الكلام عندئذٍ تتمكَّن المعاني وتستقر في الأذهان والقلوب.

وأمَّا ما ورد في القرآن الكريم من اقتران الأذن بالوعي في قوله تعالى: لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ"(الحاقة:١٢) فهنا أُسند الوعي للأذن؛ لأن الأذن كانت السبب الرئيس في عدم الانتفاع إذ حملوا كلام رسولهم محمل الاستهزاء والسُّخرية ودخل الكبر والغرور حائلًا بين الآذن والصفاء المنشود كي تنتفع بما تسمع، فالآية الكريمة جاءت في معرض الإنكار والتعريض بالمشركين الذين" لَمْ يَتَّعِظُوا بِخَبَرِ الطُّوفَانِ وَالسَّفِينَةِ الَّتِي نَجَا بِهَا الْمُؤْمِنُونَ فَتَلَقَّوْهُ كَمَا يَتَلَقَّوْنَ الْقَصَص الفكاهية"[١].

وقوله:" **تَحْمِدُوا عَوَاقِبَهَا**" جملة واقعة في جواب الطلب" فتلقوه" وجاءت هذه الجملة في ثوب الجملة الفعلية المصدَّرة بالفعل المضارع؛ للدلالة على التَّجدُّد والاستمرار وفيها من بث الطمع في الأخذ بوصيته والعمل بها ما فيها؛ لأنَّهم لن يحمدوا العواقب مرة وينتهي أمرهم وإنما هم في حمدٍ متجدد لا ينقطع أصله ولا يُفْقَدُ رسمه، وجاء الفعل من مادة "الحمد" الَّذي هو" الثناء باللسان على الجميل، سواء تعلق بالفضائل كالعلم، أم بالفواضل كالبر"[٢]. فهم سيحوزون الفضائل والفواضل جميعًا، ولذلك جاء الفعل مسندًا إلى واو الجماعة لاشتراكهم جميعًا في حوز هذه الفضائل والفواضل.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٣/٢٩.

(٢) الفروق اللغوية صـ٢٠١.

ولمَّا كانت الأمور بخواتيمها، وأن السباق متاح للجميع إلى أن تنتهي عجلته وتُحسم، وأنَّ الفائز الحقيقي هو مَن حسم الأمر في نهايته نصَّ أكثم بن صيفي على ذكر العاقبة، فقال: تحمدوا عواقبها، والْعَيْنُ وَالْقَافُ وَالْبَاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ: أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى تَأْخِيرِ شَيْءٍ وَإِتْيَانِهِ بَعْدَ غَيْرِهِ. وَالْأَصْلُ الْآخَرُ يَدُلُّ عَلَى ارْتِفَاعٍ وَشِدَّةٍ وَصُعُوبَةٍ... قَالَ الْخَلِيلُ: عَاقِبَةُ كُلِّ شَيْءٍ: آخِرُهُ، وَكَذَلِكَ الْعُقَبُ، جَمْعُ عُقْبَةٍ. قَالَ: كُنْتَ أَخِي فِي الْعُقَبِ النَّوَائِبِ وَيُقَالُ: اسْتَعْقَبَ فُلَانٌ مِنْ فِعْلِهِ خَيْرًا أَوْ شَرًّا، وَاسْتَعْقَبَ مِنْ أَمْرِهِ نَدَمًا، وَتَعَقَّبَ أَيْضًا. وَتَعَقَّبْتُ مَا صَنَعَ فُلَانٌ، أَيْ تَتَبَّعْتُ أَثَرَهُ. وَيَقُولُونَ: سَتَجِدُ عَقِبَ الْأَمْرِ كَخَيْرٍ أَوْ كَشَرٍّ، وَهُوَ الْعَاقِبَةُ"[1]، فعلى الأصل الأول إذا هم أخذوا بوصيَّته وعملوا بها فإنَّ آخر أمرهم سيكون خيرًا وحمدًا لا سيما إذا كانت الأمور شديدة وصعبة، وهذا ما يتماشى- أيضًا- مع الأصل الثاني للجذر اللغوي.

والتَّعبير بحمد العواقب كناية عن الرضا والفرح الَّذي سيعمُّهم جميعًا نتيجة العمل بوصيَّته.

هذا وكُلُّ ما ذكره أكثم بن صيفي يُعد من براعة الاستهلال، حيث أحسن التَّقدمة للوصية التي أراد أن ينصح بها أهله، فهي تحملهم على التَّنبُّه والتعقُّل والإقبال عليه والإحاطة بما يقوله لأنَها سبب حمدهم في نهاية الأمر وخاتمته وهو المراد المنشود، وقد ظهر جليًّا مدى خوفه على أهله وحرصه على نفعهم وتمتُّعهم بأفضل العواقب.

(١) مقاييس اللغة مادة:(عقب).

المطلب الثاني: بلاغة التعبير عن معاني السمو والرفعة في وصيّته

ذكرنا أنه ينبغي على الموصي أن يبيِّن للموصَى له مدى خوفه عليه كــذلك ينبغي عليه أيضًا أن يسوق له في وصيته المعاني التي تجعله يسمو ويرتفع، وقد بدا ذلك جليًّا في وصية أكثم وذلك حين بيَّن لهم حقيقة الهــوى، والعقــل والشــهوات المطلقة.

ودعاهم إلى عدم الانفراد بالرأي وبَيَّنَ لهم مغبَّة أن يستأسد المــرء بــالرأي ولا يقبل نصح غيره، ودعاهم كذلك إلى الإخلاص والتَّجرد، والصبر.

وحذَّرهم من اتِّباع هذه الشهوات، وتغييب العقل والطمع، والحسد وكشف لهم ما يفعله الحسد بالحاسد، وحذَّرهم من إيقاع أنفسهم في الذَّم، وكشف لهــم حقيقــة الكلمة، وبيَّن لهم ما معنى أن يكون العِرض نقيًّا طاهرًا مقدَّمًا على كل شيء.

فقال:" إنَّ الْهَوَى يَقْظَانُ، وَالْعقلَ رَاقِدٌ، وَالشَّهَوَاتِ مُطلَقَةٌ، والحــزم مَعْقُــول، وَالنَّفس مُهْمَلَة، والروية مُقَيّدَة، وَمَنْ يَجْهَلْ التَّوَانِي، وَيَتْرُكْ الرَّوِيَّةَ يُتْلِفْ الحَزْمَ. ولَنْ يَعْدِمَ المُشَاوِرُ مُرْشِدًا، وَالمُسْتَبِدُّ بِرَأْيِهِ مَوْقُوفٌ عَلَى مَدَاحِضِ الزَّلَلِ، وَمَنْ سَمَّع سُمَّع بِهِ، وَمَصَارِعُ الْأَلْبَاب تَحْتَ ظِلَالِ الطَّمَعِ، ولَو اعْتُبِرَتْ مَوَاقِعُ المِحَنِ، مَا وُجِدَتْ إِلَّــا فِي مَقَاتِلِ الْكِرَامِ، وعَلَى الاعْتِبَار طَرِيقُ الرَّشَادِ، وَمَنْ سَلَكَ الجُدَدَ أَمِنَ العِثَارِ، ولَــنْ يَعْدِمَ الحَسُودُ أَنْ يُتْعِبَ قَلْبَهُ، وَيُشْغِلَ فِكْرَهُ، وَيُثِيْرَ غَيْظَهُ، ولَا يُجَاوِزُ ضُرُّهُ نَفْسَهُ.

يَا بني تَمِيم: الصَّبْرُ عَلَى جُرعِ الْحِلْمِ، أَعْذَبُ مِنْ جَني ثَمَر النَّدَم، وَمَنْ جعَــلَ عِرْضَهُ دُونَ مَالِهِ، استَهْدَفَ الذَّمَ، وَكَلْمُ اللِّسَانِ، أَنْكَى مِنْ كَلْــمِ الحُسَــامِ، وَالكَلِمَــةُ مَرْهُونَةٌ مَا لَمْ تَنْجُمْ مِنْ الْفَمِ، فَإِذَا نَجمَتْ فَهِيَ سَبْعٌ مُحَرَّبٌ، أَو نَارٌ تَلَهَّــبُ، ولَكُــلِ خَافِيَةٍ مُخْتَفٍ، وَرَأَىُ النَّاصِحِ اللَّبِيْبِ دَلِيلٌ لَا يَجُورُ، وَنَفَاذُ الرَّأْيِ فِي الْحَرْبِ، أَنْفَذُ مِن الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ" وبمشيئته تعالى ستظهر أهمية هذه المعاني مــن خــلال الوقفــة المتأنية مع كلام أكثم بن صيفي

التحليل البلاغي:

بعدما أظهر أكثم لأهله أنه الرحيم بهم، المشفق عليهم، وضرب على أوتار قلوبهم واستدرَّ عاطفتهم، فجعلهم يقبلون عليه، ويُنصتون إليه، وشغلوا فكرهم بالنَّظر إليه بدأ يسوق لهم في وصيَّته المعاني التي سترفع بين الأنام شأنهم تارة يُبين لهم حقيقة شيء وتارة يُحذِّرهم من شيء آخر، تارة أخرى يُرغبهم في فعل شيء، كل ذلك ساقه أكثم في قالب بلاغي محكم، وأسلوب خلَّاب مستخدمًا أساليب بلاغيَّة متنوعة تضمن له شدَّة تعلقهم بوصيته وتمسكهم بالعمل بها فقال: " **إِن الْهوى يقظان، وَالْعقل رَاقِد**"

هذه أولى لبنات وصيته ساقها بالأسلوب الخبري المؤكَّد بـ" إنَّ" واسميَّة الجملة ليحملهم على تلقي هذه الوصية ولا شك عندهم في صدق ما يوصيهم به.

والهوى ورد في القرآن الكريم ضد الحق قال تعالى:" يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ "(ص:٢٦)، فالهوى هو الطريق الَّذي يجعل صاحبه يدفع الحقَّ ويردُّه، واتِّباعه هو فعل ما يأمر به ويكون أمره كلُّه تبعًا لهواه فيجعله سلطانًا عليه وإمامًا له، وجاء الهوى معرَّفًا بأل لإفادة الجنس واستحضاره في ذهن المخاطبين.

كما جاء المسند إليه معرفًا بـ" أل" للإشارة إلى معهود ذهنيًّا بين الناس وإن لم يُسبق له ذكر قبل ذلك لكنَّه لمَّا عرِّف دلَّ على أنَّ المراد الهوى المعهود بين الناس.

وقوله: يقظان" اليقظة ضد الغفلة، والتعبير بها من قبيل الاستعارة المكنيَّة، حيث شبه الهوى وهو من الأمور المعنويَّة بشيء حسي له يقظة ونوم كالإنسان وغيره، ثم حذف المشبه به وذكر بعضًا من لوازمه وهي اليقظة، والتعبير بالاستعارة خلعت على هذا الشيء المعنوي بعض صفات المحسوسات، وجعلته كائنًا حيًّا يتحرك متيقِّظًا ومتربِّصًا، كما أن التعبير بمادة اليقظة يشير إلى دوام انتباه هذا الهوى وعدم غفلته وعدم تراخيه في اغتنام الفرصة التي تأتيه ليوقع بصاحبه

في شراك الهاوية. يرشح كلَّ هذه المعاني مجيء الكلام في ثوب الجملة الاسمية الَّتي تدل على ثبوت الشيء ودوامه دون أن يقتضي ذلك تجدُّدًا؛ لتعكس دوام يقظة الهوى ودوام تربصه.

ومجيء الاسم من مادة" اليقظة" والتي تعني التَّنبُّه والترقب وعدم الغفلة يدل ذلك على أنَّ العدو الألد للإنسان وهو هواه الذي بين جوانحه لا يعرف النوم ولا التَّراخي ولا الكسل إنَّما هو متحفِّز دائمًا ليوقع صاحبة في دَرَك الشقاء.

ثم عطف على هذه الجملة جملة أخرى لاتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى إلى جانب اتفاقهما في الغرض العام وهو إسداء النُّصح لبنيه ورهطه، فقال:" والعقل راقد" والعقل هنا جاء في مقابلة الهوى، وكأنَّه يُشير إلى عجلة أهل الهوى وتسرُّعهم في تلبية ما يراه هواهم، فهم فاقدون للوعي والتَّفكر مُغَيِّبون عقولهم في سبات طويل.

هذا ومجيء العقل معرَّفًا بـ" أل" للدلالة على عموم هذا الحكم وشيوعه في ذوي العقول.

ثم جاء التعبير بقوله:" راقد" على صورة وهيئة اسم الفاعل؛ للدلالة على ملازمة الرقاد والغفلة لهذا العقل، وأنَّه لا يتحرَّك فيما أمره ربُّه إلَّا إذ حثَّه صاحبه وحمله على القيام بمهمته التي خُلِق لها.

والجملة كلها مبنيَّة على أسلوب المقابلة حيث قابل بين " الهوى، والعقل" و" يقظان، وراقد"، وقد أعطت المقابلة صورة متكاملة متقابلة في رصد حركة كلٍّ من الهوى والعقل، وميَّزت كلًّا منهما عن الآخر وقديمًا قيل: وبضدها تتميز الأشياء.

ثم أعقب هاتين الجملتين بجملتين جاءتا كالنتيجة والمحصِّلة لما قبلها؛ لأنَّه إذا كان الهوى يقظان والعقل راقد فإنَّه يترك الميدان واسعًا لكل شهوة ويدعها أن تكون حرَّة طليقة لتدبَّ في قلب صاحب كلِّ هوى لأنَّ الشهوة رسول من رسل الهوى وهي نتيجة حقيقية له؛ لذا كان من المناسب جدًّا أن يعقب الجملتين السابقتين بقوله:" والشهوات مطلقة والحزم معقول"

ومما يناسب معنى الشهوة ويؤيِّد كلام أكثم من كونها مطلقة تركيب حروف الكلمة وموقع هذه الحروف في مخارج النطق عند الإنسان، فحرف الشين بما فيه من تفشٍ وشيوع يحاكي تفشي هذه الشهوات وانتشارها في المجتمعات التي أطلقت لها العنان، ولا يمكن كبح جماح الشهوة والسيطرة عليها إلَّا فيما قاله الله تعالى وقاله الرسول الكريم- صلى الله عليه وسلَّم-، ثم يأتي حرف الهاء الذي ينبع من الأعماق ليصف مكمن الشهوة التي تنبع من أعماق النفس ودواخلها وما ظهور صورتها على أرض الواقع إلَّا انعكاس لسيطرتها على داخل الإنسان، ثم يأتي حرف الألف بما فيه من انطلاق ليحاكي انطلاق هذه الشهوات وانتشارها، فنحن نرى معاني الكلمة متجسِّدة في بِنيتها.

قال الراغب: أصل الشَّهْوَةِ: نزوع النّفس إلى ما تريده، وذلك في الدّنيا ضربان: صادقة، وكاذبة، فالصّادقة: ما يختلّ البدن من دونه كشهوة الطّعام عند الجوع، والكاذبة: ما لا يختلّ من دونه، وقد يسمّى الْمُشْتَهَى شهوة، وقد يقال للقوّة التي تَشْتَهِي الشيء: شهوة، وقوله تعالى:" زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ"[آل عمران/ ١٤] ، يحتمل الشّهوتين، وقوله: اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ[مريم/ ٥٩] ، فهذا من الشّهوات الكاذبة، ومن الْمُشْتَهِيَاتِ المستغنى عنها، وقوله في صفة الجنّة:" وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ" [فصلت/ ٣١]، وقوله: "فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ"[الأنبياء/ ١٠٢]، وقيل: رجل شَهْوَانٌ، وشَهَوَانِيٌّ، وشيء شَهِيٌّ"(١).

وقد عبر بلفظ الشهوة؛ لأنها جامعة لمعان متفرقة كالمحبة واللذة والتمني والإرادة، ولا ضابط لها، ففي التعبير بها ما في التعبير بغيرها وزيادة"(٢).

وأكثم راعي في تعبيره هذه الشهوة التي لا ضابط لها في مدَّة ولا إرادة، ولا توقُّف لصاحبها عنها البتَّة فهي متحررة ومطلقة، فمعناها مطابق ومفسَّر في الكلمة التي تليها وهو قوله:" مطلقة" التي تعني الإرسال وعدم التقييد قال ابن فارس في

(١) المفردات في غريب القرآن مادة:(شها).

(٢) الفروق اللغوية صـ٣٠٦ بتصرف.

مقاييسه:" الطَّاءُ وَاللَّامُ وَالْقَافُ أَصْلٌ صَحِيحٌ مُطَّرِدٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى التَّخْلِيَةِ وَالْإِرْسَالِ. يُقَالُ: انْطَلَقَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ انْطِلَاقًا. ثُمَّ تَرْجِعُ الْفُرُوعُ إِلَيْهِ، تَقُولُ: أَطْلَقْتُهُ إِطْلَاقًا. وَالطِّلْقُ: الشَّيْءُ الْحَلَالُ، كَأَنَّهُ قَدْ خُلِّيَ عَنْهُ فَلَمْ يُحْظَرْ. وَمِنَ الْبَابِ عَدَا الْفَرَسُ طَلَقًا أَوْ طَلَقَيْنِ. وَامْرَأَةٌ طَالِقٌ: [طَلَّقَهَا زَوْجُهَا]، وَطَالِقَةٌ غَدًا. وَأَطْلَقْتُ النَّاقَةَ مِنْ عِقَالِهَا وَطَلَّقْتُهَا فَطَلَقَتْ. وَرَجُلٌ طَلْقُ الْوَجْهِ وَطَلِيقُهُ، كَأَنَّهُ مُنْطَلِقٌ، وَالطَّالِقُ: النَّاقَةُ تُرْسَلُ تَرْعَى حَيْثُ شَاءَتْ. وَيُقَالُ لِلظَّبْيِ إِذَا مَرَّ لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ: قَدْ تَطَلَّقَ. وَرَجُلٌ طَلْقُ اللِّسَانِ وَطَلِيقُهُ. وَهَذَا لِسَانٌ طَلْقٌ ذَلْقٌ. وَتَقُولُ: هَذَا أَمْرٌ مَا تَطَلَّقُ نَفْسِي لَهُ، أَيْ لَا تَنْشَرِحُ لَهُ"(١). فالمعنى فيه إرسال وعدم تقييد.

ثم عطف أكثم جملة أخرى على الجملة السابقة، فقال:" والحزم معقول" والعطف بينهما؛ للتوسط بين الكمالين، فكلا الجملتين خبريتان في اللفظ والمعنى إلى جانب اتِّفاقهما في الغرض العام الذي سارت عليه الوصيَّة، والحزم يعني:" شَدُّ الشَّيْءِ وَجَمْعُهُ، وَالْحَزْمُ: جَوْدَةُ الرَّأْيِ، وَكَذَلِكَ الْحَزَامَةُ، وَذَلِكَ اجْتِمَاعُهُ وَأَلَّا يَكُونَ مُضْطَرِبًا مُنْتَشِرًا، وَالْحِزَامُ لِلسَّرْجِ مِنْ هَذَا. وَالْمُتَحَزِّمُ: الْمُتَلَبِّبُ. وَالْحُزْمَةُ مِنَ الْحَطَبِ وَغَيْرِهِ مَعْرُوفَةٌ. وَالْحَيْزُومُ وَالْحَزِيمُ: الصَّدْرُ؛ لِأَنَّهُ مُجْتَمَعُ عِظَامِهِ وَمَشَدُّهَا"(٢)، فالحزم يعني أن تكون قادرًا على الإحاطة بالأمور متمكِّنًا منها لا تنفك شهوة من حزامك ومنه الحزام الذي يُلَف حول الظهر، هذا الحزم ليست له طلاقة الشهوة وإرسالها إنَّما هو معقول ومحبوس وليس عند كثير من الناس؛ لذا قال أكثم عنه:" والحزم معقول" أي: محبوس، وأصل المادة " يَدُلُّ عُظْمُهُ عَلَى حُبْسَةٍ فِي الشَّيْءِ أَوْ مَا يُقَارِبُ الْحُبْسَةَ. مِنْ ذَلِكَ الْعَقْلُ، وَهُوَ الْحَابِسُ عَنْ ذَمِيمِ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ. قَالَ الْخَلِيلُ: الْعَقْلُ: نَقِيضُ الْجَهْلِ. يُقَالُ عَقَلَ يَعْقِلُ عَقْلًا، إِذَا عَرَفَ مَا كَانَ يَجْهَلُهُ قَبْلُ، أَوِ انْزَجَرَ عَمَّا كَانَ يَفْعَلُهُ. وَجَمْعُهُ عُقُولٌ. وَرَجُلٌ عَاقِلٌ وَقَوْمٌ عُقَلَاءُ. وَعَاقِلُونَ. وَرَجُلٌ عَقُولٌ، إِذَا كَانَ حَسَنَ الْفَهْمِ وَافِرَ الْعَقْلِ. وَمَا لَهُ مَعْقُولٌ، أَيْ عَقْلٌ"(٣).

---

(١) مقاييس اللغة مادة:(طلق).

(٢) السابق مادة:(حزم).

(٣) مقاييس اللغة مادة:(عقل).

يريد أن يقول: إن الشهوات لا ضابط لها، ولا حاكم تنصاع لأمره، فهي مطلقة ومرسلة تُعرَض على الجميع، بخلاف الحزم، وجودة الرأي وشدَّة التَّفكُّر في الأمر؛ فإنه محبوس عن أكثر الناس، وقد وضع أكثم بن صيفي هاتين الصورتين أمام أهله وذويه، صورة الشهوات المطلقة المرسلة المهلكة لمَن ينساق لها، وصورة الحكمة، والرزانة، وشدَّة الرأي وما يخلفه هذا على صاحبه من ارتداء حلل الكرامة والنَّجاة؛ لينظر السامعون ويقرروا مع أي الصورتين يسيرون.

ولا شكَّ أن المقابلة هنا جلَّت هاتين الصورتين، ورغَّبت السامعين في السير مع صورة الحزم والتَّعقُّل، وفي هذا دعوة إلى الأخذ بوصيَّته، واتِّباع نصحه؛ لأنَّه كان مشهودًا له بالحكمة والبصيرة وجودة الرأي، وهكذا نرى أكثم يسوق الحجَّة خلف الأخرى؛ ليحمل السامعين من أهله وبنيه على تقبُّل وصيَّته وتنفيذها.

ثم قال:" **وَالنَّفس مُهْمَلَة، والروية مُقَيّدَة**"

هذه الجملة معطوفة على ما سبقها من جمل والعطف هنا؛ للتوسط بين الكمالين، ويصح هنا أن تكون الواو للاستئناف ويكون أكثم قد أراد أن يفتتح مقطعًا مهمًّا من مقاطع الكلام ينبغي التوقُّف عنده والإنصات له فقال هذه الجملة.

والهمل كما جاء عند الخليل:" الهَمَلُ: السُّدَى، وما ترك اللهُ النّاسَ هَمَلاً، أي: سُدىً بلا ثَوابٍ وبلا عِقابٍ"(١).

وقال غيره: لم يتركهم سدى بلا أمر ولا نهي ولا بيان لما يحتاجونه، ونقيض الهمل: الرعاية والمادة المكونة من" الْهَاءُ وَالْمِيمُ وَاللَّامُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ. أَهْمَلْتُ الشَّيْءَ، إِذَا خَلَّيْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ. وَالْهَمَلُ: السُّدَى. وَالْهَمَلُ: الْمَالُ لَا مَانِعَ لَهُ. وَهَمَلَتِ الْعَيْنُ، مِثْلَ هَمَرَتْ"(٢). وعليه فإنه أراد أنَّ النفس لا راعي لها، فهي متروكة تسبح في كلِّ شيء، وتشتهي كلَّ شيء، وتعريف النفس بـ" أل" أفاد استغراق الجنس، ومجيء الكلمة على صورة اسم المفعول؛ للتركيز على الحدث وهو الهمل وعدم الرعاية لها

(١) معجم العين مادة:(همل).

(٢) مقاييس اللغة مادة:(همل).

من صاحبها، وهذا أمر في غاية الأهمية أن يراعي المرء نفسه ويتعهَّدها بالتربية والتزكية، كما قال الله تعالى:" وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)" (الشمس:٧-١٠).

وقوله:" والروية مُقَيِّدَة" معطوف على الجملة السابقة؛ لاتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى إلى جانب الاتِّفاق في الغرض العام من تقديم النصح والإرشاد لبنيه ورهطه.

والرويَّة تعني:" إشباع الرأي والاستقصاء في تأمله، تقول: روأت في الأمر بالتشديد وفعلت بالتشديد للتكثير والمبالغة، وتركت همزة الروية لكثرة الاستعمال"(١) ومنه " لأَنَّ إبراهيمَ، عليه السلامُ، كانَ يَتَرَوَّى ويَتَفَكَّرُ في رُؤْياهُ فيه، وفي التاسِعِ عَرَّفَ، وفي العاشِرِ اسْتَعْمَلَ"(٢).

وعليه فالرجل إذا استعمل الرويَّة ووزن الأمور بميزانها بعد تفكُّر واستقصاء فإنه يروي ظمأ الحائرين الباحثين عن الرأي الصواب.

وقوله:" مقيِّدة" القيد هو ما يمنع صاحبه من الوصول إلى مراده وغرضه ومنه حديث السيدة عائشة – رضي الله عنها وأرضاها- «قَالَتْ لَهَا امْرَأَةٌ: أُقَيِّد جَمَلي» أَرَادَتْ أَنَّهَا تَعْمَل لزَوْجها شَيْئًا يمنَعه عَنْ غَيْرِهَا مِنَ النِّسَاءِ، فَكَأَنَّهَا تَرْبِطُه وتُقَيِّده عَنْ إتْيان غَيْرِهَا"(٣).

ولا زال أكثم يضع الجملة تلو الأخرى متعمدًا اعتمادًا كليًّا على المقابلات بين الجمل وأن تكون الجملة الثانية نتيجة للجملة الأولى، فإنه إذا كانت النفس متروكه مهملة فإنَّ هذا خير دليل على عدم وجود الرويَّة ولا التأني والاستقصاء والتفكير الطويل ليسلَم الأمر لصاحبه.

---

(١) الفروق اللغوية صـ٢٦٣.

(٢) مقاييس اللغة مادة:(روي).

(٣) النهاية فيغريب الحديث والأثر١٣٠/٤، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري ابن الأثير(ت: ٦٠٦هـ)، الناشر: المكتبة العلمية- بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

كما يمكننا القول بأن الرجل- أكثم- كان يصف المشكلة ويتبعها بالحل مباشرة ــ فإذا كان الهوى يقظان فإن الذي يُرقِدُه هو العقل، وإذا كانت الشهوات مطلقة فإن الذي يمسك زمامها هو الحزم والتَّفكُّر، وإذا كانت النفس مهملة متروكة فإنَّ الذي يبصِّرها طريقها هي الرَّوية والتَّأني فهو يحثُّهم على الأخذ بما يقتضيه العقل والحزم والتفكر والرويَّة لأنَّه سيأتي بعد قليل يحذرهم ويبيِّن لهم عقوبة عدم الأخذ بهذه الأمور.

وبعد أن ساق أكثم هذه الجمل القصيرة المعبِّرة التي تدلُّ على خوضه لكثير من المعارك الحياتية والتي خرج منها برصيد كبير جدًا من المعرفة التي مكنته من إجادة التعامل مع الحياة.

وقوله:" **وَمن يجهل التواني، وَيتْرك الروية يتْلف الحزم**"

الواو هنا تحتمل أن تكون عاطفة وتحتمل أن تكون للاستئناف؛ ليلقي مزيدًا من النظر على هذا المقطع؛ لأنه كالنتيجة التي تلملم ما سبق، فنراه يجعل الجهل وكذلك العجلة مضيعة للحزم، وألمح من خلال التعبير أن في كلامه هذا دعوة للإنصات له والأخذ بوصيته، فإنَّه لمَّا ذمَّ الجهل دعاهم إلى التَّعلم منه والاستفادة بكلامه، وكذلك عندما ذمَّ العجلة فإنه دعاهم إلى الطمأنينة، وعدم التسرع في الانصراف عنه.

و"مَنْ" اسم شرط للعاقل يجزم فعلين، والتعبير به يشيع هذا الحكم على عموم جنس العقلاء، ومجيء الفعل المضارع بعده دالٌّ على التجدد والاستمرار مع استحضار صورة هذا الجهل وهو مقيم داخل صاحبه يعادي آماله، ويضيِّع عليه فرصه في النهوض والتقدُّم.

والتواني" يَدُلُّ عَلَى ضَعْفٍ. يُقَالُ: وَنَى يَنِي وَنْيًا. وَالْوَانِي: الضَّعِيفُ"(١). أي مَن يجهل هذا الضعف والفتور والتقصير، ثم عطف على فعل الشرط فعلًا آخر

(١) مقاييس اللغة مادة:(وني).

ليحذر من الآفة الثَّانية وهي التسرع، فقال:" ويترك الروية" فاجتمع لهذا الرجل جهل وترك فلا هو باحث عن علم كان يجهله، ولا عمل بمقتضى ما يعلمه فجهل التواني وترك الروية فمصيره معلوم هو أنَّه " يتلف الحزم" وقدَّم جهل التواني على ترك الروية؛ لأنَّ الترك مسبب على هذا الجهل وعدم الأخذ.

والتلف يدور معناه" حول ذَهَابُ الشَّيْءِ. يُقَالُ تَلِفَ يَتْلَفُ تَلَفًا. وَأَرْضٌ مَتْلَفَةٌ، وَالْجَمْعُ مَتَالِفُ"(١). والحزم كما بيَّنا سابقًا هو الإحاطة بالأمر وجودة الرأي. وهذا الرجل ضيَّع رأيه ولم يُحِط بما نزل به، فجلب على نفسه ما يَغمُّه ويحزنه، وفي الحقيقة لقد دار هذا المعنى كثيرًا مع أكثم وعوَّل عليه ودعا في غير موضع إلى التَّحلي بالعلم والقدرة وحذَّر من العجز والضعف وأخبر أنهما يجلبان الهلكة فقال:" من العجز والتواني نتجت الفاقة" أي هما سبب الفقر(٢). والتعبير بـ" يتلف الحزم" استعارة مكنية، حيث شبه الحزم وهو شيء معنوي بشيء حسِّي، وحذف المشبه به وذكر بعضًا من لوازمه وهو التلف، والاستعارة بيَّنت أهمية الحزم وضرورة تواجده، لا سيما وأن مجرد ذكر لفظ الإتلاف مما تنفر منه النفوس الأبيَّة الباحثة عن السمو والرفعة.

ويلاحظ أنَّ المفعول في الثلاث جمل جاء معرّفًا بـ" أل" التي يراد بها الجنس، كما بني أكثم كلامه على أسلوب الشرط؛ لما له من قدرة عالية على ربط أجزاء الكلام وذلك حين يُعلِّق حصول الجزاء على وقوع الشرط إلى جانب ما لهذا الأسلوب من قدرة على الإثارة والتشويق؛ وذلك حين يتتبع المخاطب الكلام ويظل مترقبًا لسماع النتيجة، وهنا زاد أكثم من دائرة التَّرقب والتشويق، فعطف على فعل الشرط جملة أخرى أخرت النطق بالجواب فزاد وقت الترقب والانتظار، وهذا له أثر كبير في تمكن المعنى في ذهن المخاطب.

---

(١) مقاييس اللغة مادة:(تلف).

(٢) مجمع الأمثال أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (ت: ٥١٨هـ) ٣١٣/٢، المحقق: محمد محيى الدين عبد الحميد، الناشر: دار المعرفة – بيروت، لبنان

كما يلاحظ اعتماده – أيضًا– على الفعل المضارع، حيث جاء بثلاثة أفعال مضارعة وذلك لما في هذا الفعل من قدرة فائقة على رصد الأحداث وتصويرها، وتصوير زمن حدوثها فنراها وكأننا نشاهدها رأي عين.

ثم انتقل أكثم إلى فقرة أخرى يبين فيها خطورة أن ينفرد المرء بالقرار دون الرُّجوع إلى أهل العلم والخبرة للتشاور معهم، ويبين أن الذي يبحث عن أحد يرشده سيجده لا محالة، وأن هذا الذي علاه الكبر وانفرد برأيه دائمًا تجده مُلامًا ذليلًا يُكثر الناس قرعه وتبكيته؛ لأنه كثير الوقوع في الخطأ.

قال أكثم:" **وَلَنْ يعْدم المشاور مرشداً، والمستبد بِرَأْيِهِ مَوْقُوف على مداحض الزلل**"

لن" صِيغَةٌ مُرْتَجَلَةٌ لِلنَّفْيِ فِي قَوْلِ سِيبَوَيْهِ وَمُرَكَّبَةٌ عِنْدَ الْخَلِيلِ مِنْ لَا وَأَنْ ... وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ جَازِمَةً وَقَدْ قِيلَ بِهِ إلَّا أَنَّ الْأَكْثَرَ النَّصْبُ وَعَلَى كُلِّ قَوْلٍ فَهِيَ لِنَفْيِ الْفِعْلِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لِأَنَّهَا فِي النَّفْيِ نَقِيضَةُ السِّينِ وَسَوْفَ وَأَنْ فِي الْإِثْبَاتِ فَإِذَا قُلْتَ سَأَفْعَلُ أَوْ سَوْفَ أَفْعَلُ كَانَ نَقِيضُهُ لَنْ أَفْعَلَ. وَهِيَ فِي نَفْيِ الِاسْتِقْبَالِ آكَدُ مِنْ لَا وَقَوْلِهِ تعالى: {فلن أبرح الأرض}. آكَدُ مِنْ قَوْلِهِ: {لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مجمع البحرين} وليس معناها النفي على التأبيد خِلَافًا لِصَاحِبِ الْأُنْمُوذَجِ بَلْ إنَّ النَّفْيَ مُسْتَمِرٌّ فِي الْمُسْتَقْبَلِ إلَّا أَنْ يَطْرَأَ مَا يُزِيلُهُ فهي لنفي المستقبل"(١).

والتعبير بالفعل المضارع" يعدم" دالٌّ على التجدد والاستمرار واستحضار الصُّورة الماضية، والعدم هو" فُقْدَانِ الشَّيْءِ وَذَهَابِهِ. مِنْ ذَلِكَ الْعَدَمُ. وَعَدِمَ فُلَانٌ الشَّيْءَ، إذَا فَقَدَهُ. وَأَعْدَمَهُ اللَّهُ – تَعَالَى – كَذَا، أَيْ أَفَاتَهُ"(٢).

(١) البرهان في علم القرآن ٣٨٧/٤، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت: ٧٩٤هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه.

(٢) مقاييس اللغة مادة:(تلف).

والمشاور من "التَّشَاوُرُ والْمُشَاوَرَةُ والْمَشُورَةُ: استخراج الرّأي بمراجعة البعض إلى البعض، من قولهم: شِرْتُ العسل: إذا اتّخذته من موضعه، واستخرجته منه. قال الله تعالى: وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ"[آل عمران/ ١٥٩]"(١).

والمرشد من رشد وهي تعني" الرَّشَدُ والرُّشْدُ: خلاف الغيّ، يستعمل استعمال الهداية، يقال: رَشَدَ يَرْشُدُ، ورَشِدَ يَرْشَدُ قال:" لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ"[البقرة/ ١٨٦] الرَّشَدُ أخصّ من الرُّشْدِ، فإنّ الرُّشْدَ يقال في الأمور الدّنيوية والأخرويّة، والرَّشَدُ يقال في الأمور الأخرويّة لا غير. والرَّاشِدُ والرَّشِيدُ يقال فيهما جميعا، قال تعالى: أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ" [الحجرات/ ٧]، وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ" [هود/ ٩٧] (٢).

وجاء التعبير باسم الفاعل " مرشِدًا"؛ للدلالة على الدوام والاستمرار كما جاء معرفًا بـ"أل" لاستغراق الجنس، يريد أن يقول: إن المداوم على طلب المشورة من الناس لن يعدم وجود أحدٍ يرشده، فهو يؤصِّل لفكرة ألَّا ينفرد أحدٌ برأي، وإنَّما يشاور أهل الحكمة والتَّخصص فيما يُقدم عليه، وهذا يتوافق مع ما جاء في القرآن الكريم من الأمر بالتشاور وعدم الانفراد بالرأي قال تعالى:" وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ" (أل عمران:١٥٩).

وبعدما ذكر الصنف الأوَّل الذين يداومون على طلب المشورة من أهلها وما لهم من الجزاء، وهو الحفظ من الوقوع في الزلل ذكر نقيض ذلك، وهم الصنف الثاني الذي يستأثر برأيه ويستبدُّ به، فلم يتعوَّدوا على سماع رأي آخر أو مناقشة من غيرهم، فذكرهم وبيَّن ما لهم من العقوبة، وهكذا سار أكثم في وصيَّته يذكر الصنف وما له ثم يعقب ذلك بذكر نقيضه وما عليه، وهذه طريقة مثالية في جعل الآخر يتقبل كُلَّ ما يلقيه عليه المتكلِّم؛ لأنَّه يريه الأمر وضدَّه، ويخيره بين ما هو حسن وعكسه، قال أكثم:" **والمستبد بِرَأْيِهِ مَوْقُوف على مداحض الزلل**"

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة:(شور).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة:(رشد).

كما قلنا في شأن الواو السابقة من صحَّة حملها على العطف بين الجملتين؛ لما بينهما من الاتِّفاق في الخبرية لفظًا ومعنى إلى جانب الاتِّفاق في الغرض العام، ويصح حملها على الاستئناف؛ لكون هذه الجملة جديرة أن يُفتتح بها الكلام لما تحويه من معانٍ غاية في الأهميَّة، جعلتها جديرة أن تكون في مقدمة الكلام.

ثمَّ جاء المسند إليه معرَّفًا بـ" أل" التي هي لإفادة الجنس؛ لتشيع هذا الحكم في أفراد الجنس كله، فقال:" والمستبد برأيه" الاستبداد بالرأي: التَّفرد به وعدم سماع غيره " يُقَالُ: استبَدَّ بالأَمر يستبدُّ بِهِ اسْتِبْدَادًا إِذا انْفَرَدَ بِهِ دُونَ غَيْرِهِ. واستبدَّ برأْيه: انْفَرَدَ بِهِ"(١).

والأسلوب من قبيل الكناية عن صفة، وهي تصور مدى كبر هؤلاء القوم وغطرستهم وتعسُّفهم في رأيهم وفرضه على غيرهم.

ومجيء المسند إليه في صورة اسم الفاعل الدالِّ على الدوام والاستمرار يُبيِّن حال هؤلاء المستبدِّين بآرائهم وما هم عليه من المداومة على هذا الاستبداد الذي صاحبهم وصحبوه فألفهم وألفوه، فلا يفارقهم ولا يفارقونه.

وممَّا يؤيد فكرة المداومة على الاستبداد بالرأي أن الفعل استبدَّ يتعدى إلى مفعوله بالباء، والباء لا ينفك عنها معنى المصاحبة، فهي تبين شدَّة لصوق هذا الصفة بهم.

والتعبير بالرأي " يَدُلُّ عَلَى نَظَرٍ وَإِبْصَارٍ بِعَيْنٍ أَوْ بَصِيرَةٍ. فَالرَّأْيُ: مَا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ فِي الْأَمْرِ، وَجَمْعُهُ الْآرَاءُ. رَأَى فُلَانٌ الشَّيْءَ وَرَاءَهُ"(٢).

وإضافة الرأي إلى الضمير العائد على هذا المستبد يعكس اعتباره برأيه وإعجابه به وتقديسه له، وهذا مصيره الهلاك قطعًا كما في المثل:" مَن استبد برأيه هلك" وهؤلاء لهم عقوبة عند أكثم، وعقوبتهم عنده أنهم" موقوفون على مداحض الزلل"

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة:(بدَّا).

(٢) مقاييس اللغة، مادة:(رأى).

ثم جاء لفظ المسند في صورة اسم المفعول" موقوف"؛ للدلالة على دوام هذا الفعل له وأنَّه لا يبرح هذا الوقوف أبدًا، وللتركيز على صورة هذا الوقوف وما فيه من المذلَّة.

إنَّه لن يثبت في وقوفه؛ لأنَّه لم يقف على مكان ثابت، إنَّما وقف في مكان زلق فأصل الفعل " دحض" يَدُلُّ عَلَى زَوَالٍ وَزَلَقٍ. يُقَالُ دَحَضَتْ رِجْلُهُ: زَلَقَتْ. وَمِنْهُ دَحَضَتِ الشَّمْسُ: زَالَتْ. وَدَحَضَتْ حُجَّةُ فُلَانٍ، إِذَا لَمْ تَثْبُتْ. قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: {حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [الشورى: ١٦] "(١).

والزلل هو الخطأ " والزَّلَّةُ في الأصل: استرسال الرّجل من غير قصد، يقال: زَلَّتْ رِجْل تَزِلُّ، والْمَزِلَّةُ: المكان الزّلق"(٢).

والتعبير كلُّه كناية عن الخيبة والخسارة، وبين هذه الجملة والتي قبلها مقابلة سياقية، حيث يأتي السياق الذي يصور حال المشاور وما هو عليه من الخير والبركة نظير مشاورته لغيره، وحال هذا المستبد برأيه المنفرد به وما له من الخيبة والخسارة والفضيحة؛ لأنَّه عبر بحرف الجر" على" وهو يفيد الاستعلاء، وإذا كان المرء مستعليًا على الشيء فهو ظاهر للجميع يرونه ويشاهدون وضعه الذي هو عليه، فكلُّ الناس يرونه وهو واقف على هذه المداحض المهلكة. وفي هاتين الجملتين – أيضًا– دعوة للإنصات لرأيه والعمل به؛ وذلك حين بيَّن لهم حال الطرفين.

وقوله:" **وَمن سَمَّع سُمِّع بِهِ، ومصارع الْأَلْبَاب تَحت ظلال الطمع**" مَنْ هنا اسم شرط يجزم فعلين دالٌّ على عموم العقلاء، والتعبير به يشع الحكم الموجود على جميع مَن له عقل يُفكر به، وقوله: " سَمَّع" فعل الشرط، والتَّسميع هو الشتم وإظهار القبيح، جاء في لسان العرب:" وَمِنَ التَّسْمِيعِ بِمَعْنَى الشَّتْمِ وإِسماع الْقَبِيحِ قَوْلُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ سَمَّعَ بِعَبْدٍ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ"(٣).

---

(١) مقاييس اللغة، مادة:(رأى).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة:(زل).

(٣) لسان العرب، مادة:(سمع).

وفي مقاييس اللغة" يُقَالُ سَمِعْتُ بِالشَّيْءِ، إِذَا أَشَعْتُهُ لِيُتَكَلَّمَ بِهِ. وَالْمُسْمِعَةُ: الْمُغَنِّيَةُ"(١). وعليه فإنَّه يريد منهم أن يحفظوا ألسنتهم، فلا ينشروا عيبًا أو قبيحًا، وعبَّر بالسمع دون الاستماع؛ لأنَّ" الاستماع هو استفادة المسموع بالإصغاء إليه؛ ليفهم ولهذا لا يقال إن الله يستمع، وأما السماع فيكون اسما للمسموع، يقال لما سمعته من الحديث هو سماعي ويقال للغناء سماع، ويكون بمعنى السمع تقول سمعت سماعا كما تقول سمعت سمعا، والتسمع طلب السمع مثل التعلم طلب العلم"(٢).

وعليه فإن مَنْ سَمَّع لا تعود عليه أيُّ فائدة مرجوة إلَّا أنَّه يُسَمَّع به، وهو قوله:" سُمِّعَ به" وهو واقع في جواب الشرط، وقد حصل التَّماسك المطلوب بين أجزاء الجملة عن طريق تعليق حصول الجواب والجزاء على وقوع فعل الشرط، هذا إلى جانب ما فيه من التشويق والإثارة الحاصلين من ترقب انتظار ذكر الجواب.

وجاء جواب الشرط فعلًا ماضيًّا مبنيًّا للمجهول، وحذف المسند إليه؛ لقصد التعميم، وهو مناسب جدًّا في مقام التخويف، والحث على ترك الشتم والتشهير، لأنَّ المُقْدِمَ على هذا العمل إذا علم بأنَّ الجزاء من جنس عمله، وأن عقوبته تحتمل الوقوع من أكثر من أحد هاب عاقبة عمله فلا يُقدم عليه.

ومن الممكن أن يكون المراد أنه نهاهم عن التصنُّع والرياء، ودعاهم إلى موافقة الباطن للظاهر " أَي أظهر عَنهُ مَا ينطوي عَلَيْهِ من قبح السرائر يُقَال سَمِعت بالشَّيْء إِذا أشعته فشاع فِي الأسماع، وَسمعت بِالرجلِ تسميعا إِذا أشهرته وأفشيت الْقَبِيح عَلَيْهِ وَقد رُوِيَ بِلَفْظ أخر "من سمع النَّاس بِعَمَلِهِ سمع الله بِهِ سامع خلقه" وَبَعض الروَاة يَقُول: أسامع خلقه فتسميعه بِعَمَلِهِ، أَي: يظْهر لَهُم من الْجَمِيل خلاف

(١) مقاييس اللغة، مادة:(سمع).

(٢) الفروق اللغوية صـ٤٩.

مَا يسْتَتر بِهِ عَنْهُم، فَجَزَاؤُهُ أَن يسمع الله بِهِ، أَي: يظْهر مَا أخفاه من ذَلِك وتملأ أسماع السامعين من خلقه بذلك "(١).

هذا وقد صفت قريحة أكثم فوافق كلامُه كلامَ النبي- صلى الله عليه وسلَّم- ودعوتَه في الحث على التحلي بمكارم الأخلاق والدعوة إلى الصدق والإخلاص، وهذا يُعَدُ من أهم ما يميِّز كلام أكثم بن صيفي.

ولمَّا كان التَّسميع شيئًا نابعًا عن تفكير من العقل أتبع الجملة السابق بجملة أخرى تبيِّن الباعث على التسميع، وتخبرنا أنه ناتج عن تفكير من العقل، ووقود ذلك ودافعه هو الطمع، فقال:" **ومصارع الألباب تحت ظلال الطمع**"

قوله:" مصارع" جمع مصرع وأصل الفعل" يَدُلُّ عَلَى سُقُوطِ شَيْءٍ إِلَى الْأَرْضِ عَنْ مِرَاسِ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَى ذَلِكَ وَيُشْتَقُّ مِنْهُ "(٢). والألباب جمع لب، و" و" لُبُّ كلِّ شيء من الثمار: داخله الّذي يُطْرَحُ خارجه، نحو اللّوز وما إليه. ولُبُّ الرَّجل ما جُعِل في قلبه من العَقْل وجمع اللّبِّ: ألبابٌ. واللُّباب جامع في كلّ ما خلا الإنسان، لا يقال في موضع اللّب من الإنسان: لُباب. ولُبابُ القَمْح، يعني الحِنطة، ولُبابُ الفُسْتق. واللُّبابُ من الإبل: خِيارُها وأفضلها. ولباب الحسب: مَحْضُهُ. واللُّبابُ: الخالصُ من كلّ شيء"(٣).

---

(١) تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم ١٧٢/١، المؤلف: محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي الميورقي الحَمِيدي (ت: ٤٨٨هـ)، المحقق: د: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، الناشر: مكتبة السنة – القاهرة – مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ه – ١٩٩٥م.

(٢) مقاييس اللغة، مادة:(صرع).

(٣) معجم العين، مادة:(صرع). أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

وعلى هذا المعنى فالتعبير باللب من قبيل المجاز المرسل لعلاقة الجزئية، حيث أطلق الجزء وهو اللب، وأراد الكل وهو البدن كله، وإنما صحَّ التعبير عن الكل بهذا الجزء لما له من مزيد اختصاص بالمعنى المراد، كما أنَّ التعبير باللب يلفت النظر إلى أن الهزيمة والانكسار والسقوط تنشأ أولًا من داخل الإنسان وذلك حين يستسلم لطمعه وجشعه فيقوده ذلك إلى أن يقع صريعًا في بحر من اللوم والعتاب ومن ثَمَّ السقوط من أعين الخلق.

ولمَّا كان هذا الأمر مطَّردًا في جميع البشر جاءت كلمة الألباب مجموعة؛ لتعُمَّ جميع البشر، مع ما في التعبير بالجمع من المناسبة مع الجمع في كلمة مصارع.

وقوله: "تحت" مقابل لفوق، قال تعالى: لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ [المائدة/ ٦٦]، و«تحت»: يستعمل في المنفصل، و«أسفل» في المتصل، يقال: المال تحته، وأسفله أغلظ من أعلاه، وفي الحديث: «لا تقوم الساعة حتى يظهر التُّحُوت» أي: الأراذل من الناس. وقيل: بل ذلك إشارة إلى ما قال سبحانه: وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ [الانشقاق/ ٣- ٤]" (١).

وعليه فإنَّ الذي ينساق وراء طمعه سيكون مفصولًا عن بني جلدته.. مفصولًا عن مجتمعه.. لا يشغله إلَّا تلبية ما يأمره به طمعُه حتى يقع صريعًا لهذا الطمع والجشع.

وقوله: " ظلال الطمع" الظلال جمع ظل وهو" ضدُّ الضَّحِّ، وهو أعمُّ من الفيء، فإنه يقال: ظِلُّ اللّيلِ، وظِلُّ الجنّةِ، ويقال لكلّ موضع لم تصل إليه الشّمس: ظِلٌّ، ولا يقال الفيءُ إلّا لما زال عنه الشمس، ويعبّر بِالظِّلِّ عن العزّة والمنعة، وعن الرّفاهة، والظُّلَلُ: جمعُ ظُلَّةٍ"(٢).

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة:(تحت).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة:(ظلل).

وورد عند ابن فارس" الظَّاءُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى سَتْرِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ، وَهُوَ الَّذِي يُسَمَّى الظِّلَّ. وَ [كَلِمَاتُ] الْبَابِ عَائِدَةٌ إِلَيْهِ. فَالظِّلُّ: ظِلُّ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ، وَيَكُونُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، وَالْفَيْءُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْعَشِيِّ"(١).

أمَّا الطمع فهو" يَدُلُّ عَلَى رَجَاءٍ فِي الْقَلْبِ قَوِيٍّ لِلشَّيْءِ. يُقَالُ: طَمِعَ فِي الشَّيْءِ طَمَعًا وَطَمَاعَةً وَطَمَاعِيَةً. وَيُقَالُ: امْرَأَةٌ مِطْمَاعٌ، لِلَّتِي تُطْمِعُ وَلَا تُمْكِنُ"(٢).

وفي التعبير بظلال الطمع استعارة مكنية، حيث شبَّه الطمع وهو شيء معنوي لا ظلَّ له بشيء ماديٍّ له ظل، ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه، وهو قوله: ظلال، وإثبات لازم المشبه به للمشبه استعارة تخيلية، وهي قرينة المكنية، والاستعارة خلعت على الشيء المعنوي صفات الشيء الحسي فجعلته متحرِّكًا وله ظِلٌّ، وجعلت له علامات تشير عليه.

وأرى أنَّ الجملة في غاية الواقعيَّة وذلك حين عبَّر بالظل وهو مما يتناسب مع الإنسان الذي يحركه طمعُه فيقع أسيرًا وصريعًا لهذا الطمع، فيمشي بين الناس محاولًا أن يُخفي على الناس ما في صدره، فلا تراه عيانًا إنما تدرك له ظلًّا يُشير إليه ويدلُّ عليه، والله تعالى قد تولى فضح هذه الفئة من البشر وهذا مُشَاهَدٌ لمَن أراد أن يعتبر.

ثم انتقل أكثم إلى فقرة مهمة من فقرات هذه الوصية وذلك حين يدلُّهم على أعظم المحن التي ينبغي عليهم أن يفطنوا لها، داعيًّا لهم من طرفٍ خفِيٍّ أن يغتنموا وصيَّته ونصحه، وألَّا يدعوا فرصة للاعتبار إلَّا واستغلُّوها، فدلَّهم على الداء العضال الذي يَحْرِمُ البشرية من الاعتبار وهو الحسد واصفًا ما يفعله الحسد بصاحبة في جملٍ خلابة تتسم بالدِّقة والموضوعية، فقال: وَلَو اعْتَبرتْ مواقع المحن، مَا وجدت إِلَّا فِي مقَاتل الْكِرَام، وعَلى الِاعْتِبَار طَرِيق الرشاد، وَمن سلك

(١) مقاييس اللغة، مادة:(ظلَّ).

(٢) مقاييس اللغة، مادة:(طمع).

الجدد أَمن العثار، ولَنْ يعْدم الحسود أَن يتعب قلبه، ويشغل فكره، ويثير غيظه، ولَا يُجَاوز ضره نَفسه"

قوله:" **وَلَو اعْتبرتْ مواقع المحن، مَا وجدت إِلَّا فِي مقَاتل الْكِرَام**"

أراد أن يقطع عليهم طريق الأماني الزائفة التي تجلب لهم الطمع فدعاهم إلى الواقع ليدلَّهم على أعظم محنة. والواو كما سبق تحتمل أن تكون هي الواو العاطفة للجمل على بعضها، ويجوز كونها للاستئناف، و" لو" حرف شرط يجزم فعلين ويتضمن معنى الشرط، وهو حرف امتناع لامتناع دالٌّ على امتناع الجواب نظرًا لامتناع الشرط، والاعتبار" أصل العَبْرِ: تجاوزٌ من حال إلى حال، فأمّا العُبُورُ فيختصّ بتجاوز الماء، إمّا بسباحة، أو في سفينة، أو على بعير، أو قنطرة... وَالاعْتبَارُ والعِبْرَةُ: بالحالة التي يتوصّل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد. قال تعالى:" إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً" [آل عمران/ ١٣] (١).

أمَّا المراد " بمواقع المحن" أي: مساقط الابتلاء، والمعنى: لو أخذتم العبرة من مواقع الابتلاء ما وجدتم هذه المحن إلَّا في مقاتل الكرام، " والكَرَمُ إذا وصف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه وإنعامه المتظاهر، نحو قوله:" فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ" [النمل/ ٤٠]، وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال: هو كريم حتى يظهر ذلك منه. قال بعض العلماء: الكَرَمُ كالحرّيّة إلّا أنّ الحرّيّة قد تقال في المحاسن الصّغيرة والكبيرة، والكرم لا يقال إلا في المحاسن الكبيرة"(٢).

هذا وقد جاءت هذه الجملة كالجمل السابقة التي جاءت مبنيَّة على أسلوب الشرط؛ لقصد إظهار التَّماسك والاتِّحاد بين لبنات الجملة، وهو يشير إلى ضرورة التَّماسك المنشود بين أفراد أهله والذي ساق هذه الوصيَّة لأجله، ولا شكَّ أن الحسد إذا وقع بين الناس فلا تجد أُلفة ولا تماسكًا، ودفعه من أقوى الأساليب الباعثة على

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة:(عبر).

(٢) المرجع السابق، مادة:(كرم).

القوة والتماسك والأُلفة بين الناس، ثم أنَّه زاد من توكيد معناه المراد فبني الجملة على أسلوب القصر، وانتقى أقوى الأساليب وهو أسلوب النفي والاستثناء وذلك؛ لأنَّ النفي فيه يقع صريحًا ليس ضمنيًّا كالموجود في طريق القصر بـ" إنَّما" مثلًا. قال الشيخ عبد القاهر– رحمه الله تعالى:" وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: "ما هذا إلا كذا"، و "إن هو إلا كذا"، فيكون للمر يُنْكِرهُ المخاطَبُ ويَشُكُّ فيه. فإذا قلتَ: "ما هو إلاَّ مُصيبٌ" أو: "ما هو إلا مخطئ"، قلتَه لمن يدفَعُ أن يكونَ الأمْرُ على ما قلت، وإذا رأيتَ شخصاً مِنْ بعيدٍ فقلتَ: "ما هو إلا زيدٌ"، لم تَقُلْه إلاَّ وصاحِبُك يَتوهَّم أنه ليس بزيدٍ، وأنه إنسانٌ آخرُ، ويجدُّ في الإنكارِ أن يكون "زيدًا"[١].

هذا والقصر من باب قصر الصفة على الموصوف، حيث قصر وجود المحن والابتلاء على مقاتل الكرام، وكأنَّ ما عدا هذا الابتلاء من أنواع البلاء المختلفة لا يُعَدُّ من قبيل الابتلاء في شيء إذا ما قِيس بمدى المحنة التي تنزل بالناس إذا مات الكرام فيهم، فلا يوجد من يتَّصف بالخصال الحميدة ويقوم بالأفعال الكريمة من الناس.

وأرى أن في هذه الجملة حثًّا لهم على تَقَبُّل نصحه وتنفيذ وصاياه؛ لأنَّه – بلا شكٍّ– أكرمهم فعالًا وأحسنهم مقالًا، وأشدُّهم شكيمة، وأحرصهم على جلب الخير لهم، فإذا فقدوه فقد فقدوا عزَّهم وفِخارهم وانتقلوا من العيش في جنَّة نصحه ووصاياه إلى نار البُعد عنه، والوقوع في الوهن والضعف، والوقوف في مداحض الزلل.

ثمَّ بنى على جملة الشرط السابقة جملة أخرى قريبة الصِّلة بها، ولا نبعد إن قلنا إنَّها خرجت من رحمها؛ لأنَّه دعاهم إلى أخذ العبر من مواقع المحن، ودلَّهم على أكبر المحن قاصمة للظهر جاء هنا فأكَّد لهم أهمية الاعتبار بما يقال، فقال:" **وعَلى الِاعْتِبَار طَرِيق الرشاد**" هذه الجملة مبنية على الجملة السابقة، بَيَّنَ فيها أنَّ

(١) دلائل الإعجاز صـ٣٣٢.

مَنْ أراد أن يسلك طريق الرشاد فعليه أن يتَّخذ طريق الاعتبار واعظًا وقائدًا، وقيَّد الطريق بكونه طريق الرشاد لأن" اسم الطريق لا يُراد به الخير إلا مقترنا بوصف أو إضافة تخلصه لذلك. كقوله تعالى: " يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم بخلاف السبيل مثلًا فإنَّ أغلب وقوعه يكون في الخير"(١).

وتَصَدُّر الجملة بحرف الجر" على" الذي يدل على الاستعلاء صور أنَّ طريق الرشاد يعلو الاعتبار ويتكئ عليه، فلولا الاعتبار ما كان للرشاد طريق يسلكه السالكون.

وفي إسناد الرشاد للطريق مجاز عقلي، حيث أسند المبني للفاعل إلى المكان، وأفاد المجاز المبالغة في حسن النهاية وتمام الغاية؛ لأنَّه إذا كان الطريق يتَّسم بالرشاد فما بالك بمَن يسيرون عليه.

هذا والجملة فيها قصر بطريق تقديم ما حقُّه التأخير، حيث قصر وجود الرشاد على الاعتبار قصر موصوف على صفة، وقد أبرز القصر دور الاعتبار في سلوك طريق الرشاد والهدى؛ لأنَّه سيتبصَّرُ طريقه من خلال مطالعة ما جرى للسابقين أثناء سيرهم ومن ثَمَّ يكون الاعتبار حليفه وقائده لتجنُّب الوقوع فيما وقعوا فيه، وسلوك الطريق المستقيم.

وقوله:" **وَمَنْ سلك الجدد أَمن العثار**" لمَّا ذكر في الجملة السابقة الطريق ورشاد مَنْ يسلكه عاد هنا فذكر السلوك والجدد و(الطريق، والسلوك، والعثار، والأمان) كل هذه الكلمات من حقل دلالي واحد، وهو ما يسمى بمراعاة النظير وله في تماسك النص وتعاضده دور بارز؛ وذلك لأنَّ المتكلِّم يبحث عن الكلمة وأختها فهو ينتقل" بين المعاني المتجانسة ، فإذا حدثك عن السماء لا يَثِبُ منها إلى الأرض كما في الطباق وإنَّما يظل يحدِّق، فيذكر النجوم والقمر والسَّحاب والرياح

(١) الفروق اللغوية صـ٣١٣ بتصرف.

والطيور... [١]، فتكون الكلمات والجمل مكونة من أسرة دلاليَّة واحدة، وهذا من أهم عوامل بناء النص وتماسكه.

ومَنْ اسم شرط دالٌّ على عموم العقلاء، ومجيء الفعل بعده" سلك" دالٌّ على السهول واليسر لأنَّه الأصل يَدُلُّ عَلَى نُفُوذِ شَيْءٍ فِي شَيْءٍ. يُقَالُ سَلَكْتُ الطَّرِيقَ أَسْلُكُهُ. وَسَلَكْتُ الشَّيْءَ فِي الشَّيْءِ: أَنْفَذْتَهُ"[٢].

والجدد: الجَدُّ: قطع الأرض المستوية، ومنه: جَدَّ في سيره يَجِدُّ جَدّ، قال تعالى:" وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ" [فاطر/ ٢٧]، جمع جُدَّة، أي: طريقة ظاهرة، من قولهم: طريق مَجْدُود، أي: مسلوك مقطوع"[٣].

وجاء عند ابن فارس:" الْجِيمُ وَالدَّالُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ: الْأَوَّلُ الْعَظَمَةُ، وَالثَّانِي الْحَظُّ، وَالثَّالِثُ الْقَطْعُ.

فَالْأَوَّلُ الْعَظَمَةُ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ إِخْبَارًا عَمَّنْ قَالَ: {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا} [الجن: ٣] وَيُقَالُ: جَدَّ الرَّجُلُ فِي عَيْنِي أَيْ عَظُمَ.

وَالثَّانِي: الْغِنَى وَالْحَظُّ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي دُعَائِهِ: «لَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»، يُرِيدُ لَا يَنْفَعُ ذَا الْغِنَى مِنْكَ غِنَاهُ، إِنَّمَا يَنْفَعُهُ الْعَمَلُ بِطَاعَتِكَ. وَفُلَانٌ أَجَدُّ مِنْ فُلَانٍ وَأَحَظُّ مِنْهُ بِمَعْنًى.

وَالثَّالِثُ: يُقَالُ جَدَدْتُ الشَّيْءَ جَدًّا، وَهُوَ مَجْدُودٌ وَجَدِيدٌ، أَيْ مَقْطُوعٌ"[٤].

والتعبير بهذه الجملة مجتمعة فيه حثٌّ على سلوك المعهود الواضح من الأمور، وأنَّ الذي يسلك هذه الأمور الواضحة لا يسقط في عيون الناس ولا تُرى له سوءة.

---

(١) علم البديع عند الشيخ محمد أبو موسى صـ٩٨، كتبه وعلَّق عليه أد/ محمود توفيق سعد، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ٢٠١٩م.

(٢) مقاييس اللغة، مادة:(سلك).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة:(جد).

(٤) مقاييس اللغة، مادة:(جد).

وفي التعبير – أيضًا– كناية عن صفة، وهي ضرورة التحلِّي بجميل الخصال التي ترفع صاحبها، والبعد عن الصفات الذميمة التي تُسقط صاحبها أسفل سافلين.

ثمَّ إنَّه ضرب مثلًا لهذه الصفات الذميمة التي تجلب على صاحبها الهمَ والقلقَ، وتجعله يعيش في الدُّون دائمًا، فبعدما بيَّن لهم خطورة الطمع قبل ذلك جاء هنا ليدلَّهم على أهمِّ محبطات الرقي والرفعة، وهو الحسد وما يجلبه من التَّعب والضر على الحسود نفسه، فقال:" **وَلَنْ يعْدم الحسود أَن يتعب قلبه، ويشغل فكره، ويثير غيظه، وَلَا يُجَاوز ضره نَفسه**"

تناول أكثم في هذه الجمل موضوعًا يضرب بجذوره في أعماق البشرية من بدء الخليقة، فمنذ أيامها الأُوَل لم يزل يحيا هذا الموضوع بين الناس وسيظلُ إلى قيام الساعة، والحسد قرين الكبر وعدم الرضا، فقد وُلِد موضوع الحسد من نفس إبليس المتكبِّرة وذلك حين حسد آدمَ – عليه السلام– فحمله حسدُه على أن يعصي أمر ربِّه، فامتنع عن السجود لآدم –عليه السلام– أمَّا آدم فتاب فتاب الله عليه. أمَّا إبليس فلم يزل حبيس حسده وكبره وعدم رضاه، طريدًا من رحمة خالقه– جل وعلا– موعودًا بأشد أنواع العذاب في الآخرة.

وقد صدَّر أكثم جمله بقوله:" **وَلَنْ يعْدم الحسود أَن يتعب قلبه**" الواو هنا استئنافية وهي جديرة أن يكون لمضمون ما دخلت عليه الصدارة؛ لأنَّه وضع يده على الدَّاء العضال الذي أرهق الصغير والكبير، والقريب والبعيد، والرجل والمرأة، ويصف له الدواء بطريقته الخاصة.

" ولن" حرف نفي، ينصب الفعل المضارع، ويخلصه للاستقبال، واستخدام أكثم هذه الأداة بالذَّات يعكس إيمانه الصادق ويقينه الراسخ في صدق ما يخبرهم به لأنَّ لن لتأكيد ما تعطيه" لا" من نفي المستقبل، وذهب الأخفش إلى أنَّها تفيد تأبيد النفي [١].

(١) الجنى الداني صـ٢٧٠ بتصرف.

ومجيء كلمة" الحسود" على صيغة المبالغة تبين أنَّ الحسد تمكَّن من هذا الرجل، وسيطر عليه، وشغل فكره وعقله، كما جاءت الكلمة معرفة بـ" أل"؛ للدلالة على شمول هذه الأمور التي سيخبر عنها لكل حسود.

ثم إنه صاغ الفعل على صورة المضارعة؛ ليثبت هذه الأمور باقية متجدِّدة لكل حسود، لا تنفك عنه، ينام بها ويقوم بها ويمشي ويتعامل بين الناس وهي بين جنبيه لا يفارقها ولا تفارقه.

وقوله:" **أن يتعب قلبه**" التعبير بالمصدر المؤول يُبيِّن قرب وقوع هذه الأمور للحسود لأنَّه " من الأمور التي يعدل فيها عن المصدر الصريح إلى المصدر المؤول أن يرتبط الحدث باحتمالية الوقوع"[١] قريبًا في المستقبل، وقد ذكر الشيخ عبد القاهر أنَّه إذا دخلت (أن) على فعل لم يصلح إلَّا للاستقبال كقولك: عسى زيد أن يخرج، ولا تتضح الدلالة على أنك تقرب المستقبل إذا عُبِّر بالمصدر الصريح فقلت: عسى زيد الخروج[٢].

كلُّ هذه الدلالات والإيحاءات تثبت وتؤكِّد للحسود أنَّه سيعيش في تعبٍ بدني وقلبي مستمر، وشغل فكري، وحسرة باقية لا تفارقه.

ثمَّ إنَّ أكثم أجرى التَّعب على القلب، والقلب جزء من البدن، والتعبير به عن البدن من قبيل المجاز المرسل لعلاقة الجزئية، والمجاز يبيِّن ما للقلب من دور بارز في جلب الراحة للبدن كله؛ لأنَّه أمير البدن، وصلاح البدن متوقِّف على صلاحه، وهكذا تشكَّلت اللبنة الأولى في جمل أكثم التي حذر فيها من الحسد وأخبر أنَّ قلب الحسود في تعب دائم لا ينقطع.

---

(١) العدول عن المصدر الصريح إلى المصدر المؤول في القرآن الكريم دراسة دلالية صـ٥٧، د: إسلام محمد عبد السلام، بحث ضمن حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية- الحولية الخامسة والثلاثون ١٤٣٦هـ -٢٠١٤م.

(٢) المقتصد في شرح الإيضاح ٣٥٦/١، للإمام: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق د: كاظم بحر المرجان، دار الرشيد- العراق ١٩٨٢م.

ثم عطف على هذه الجملة جملة أخرى متَّفقة معها في الخبرية لفظًا ومعنى إلى جانب اتّفاقهما في الغرض العام الذي هو بيان خطورة الحسد وما يجلبه الحسد على الحاسد، فقال:" **ويشغل فكره**" فالعطف بينهما للتوسط بين الكمالين، وقد جاءت هذه الجملة على حذو الجملة السابقة في صياغتها، فبدأت بالفعل المضارع وهو دالٌّ على التَّجدُّد والاستمرار حذف منه المسند إليه لكونه معلومًا من سياق الكلام، وأسند الشغل للفكر؛ لأنَّه أدادته وآلته، والشغل هو ما" يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الْفَرَاغِ. تَقُولُ: شَغَلْتُ فُلَانًا فَأَنَا شَاغِلُهُ، وَهُوَ مَشْغُولٌ. وَشُغِلْتُ عَنْكَ بِكَذَا، عَلَى لَفْظِ مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ"(١). أمَّا الفكر فهو" قوّة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتَّفَكُّرُ: جولان تلك القوّة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب، ورجل فَكِيرٌ: كثير الْفِكْرَةُ، قال بعض الأدباء: الْفِكْرُ مقلوب عن الفرك لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها طلبا للوصول إلى حقيقتها"(٢).

ففكر الحسود لا يعرف الهدوء والفراغ، فهو دائمًا مستغرِّق في التفكير، ولن يجنى شيئًا على الإطلاق من دوام تفكيره، وهذا من موجبات الغيظ والغضب ولذا كانت الجملة الثالثة التي ذكرها أكثم بن صيفي في شأن الحسود، فقال:" **ويثير غيظه**" وهذه الجملة مرتبة على حسب العوارض التي تتخلل بدن الحسود، فهي تبدأ بتعب القلب ثم شغل الفكر ثم إثارة الغيظ.

وقوله:" **يثير غيظه**" كناية عن انتشار الغيظ واتِّساع دائرته، والغيظ: غَضَبٌ شَدِيدٌ يُلَازِمُهُ إِرَادَةُ الِانْتِقَامِ؛ وذلك لأنَّه يرى نفسه في نقص دائم ويرى غيره في زيادة وكمال، وذلك ممَّا يجلب الغَمَّ له، قال الطاهر بن عاشور:" وَالتَّكَنِّي بِالْغَيْظِ

(١) مقاييس اللغة، مادة:(شغل).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة:(فكر).

وَبِالْحَسَدِ عَنْ كَمَالِ الْمُغِيظِ مِنْهُ الْمَحْسُودِ مَشْهُورٌ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: فُلَانٌ مُحَسَّدٌ، أَيْ هُوَ فِي حَالَةِ نِعْمَةٍ وَكَمَالٍ"(١).

هذا والغيظ: أشدّ الغضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه، وقد دعا الله الناس إلى إمساك النّفس عند اعتراء الغيظ. قال:" وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ [آل عمران/ ١٣٤]. قال: وإذا وصف الله سبحانه به فإنه يراد به الانتقام. قال: وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ" [الشعراء/ ٥٥]، أي: داعون بفعلهم إلى الانتقام منهم، والتَّغَيُّظُ: هو إظهار الغيظ، وقد يكون ذلك مع صوت مسموع كما قال:" سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيرا" [الفرقان/ ١٢] "(٢).

ثم يختم أكثم بن صيفي حديثه عن هذا الداء بجملة لو تفكَّر فيها الحسود لأراح قلبه وفكره ولكظم غيظه، وهي قوله:" **وَلَا يُجَاوز ضره نَفسه**" وقد صدر الجملة بالواو التي تعطف بين الجمل، والعطف هنا للتوسط بين الكمالين حيث اتفقت هذه الجملة مع سابقتها في الخبرية لفظًا ومعنى إلى جانب اتفاقهما في الغرض العام، و" لا" نافية، والجوز:" الْجِيمُ وَالْوَاوُ وَالزَّاءُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا قَطْعُ الشَّيْءِ، وَالْآخَرُ وَسَطُ الشَّيْءِ. فَأَمَّا الْوَسَطُ فَجَوْزُ كُلِّ شَيْءٍ وَسَطُهُ. وَالْأَصْلُ الْآخَرُ جُزْتُ الْمَوْضِعَ سِرْتُ فِيهِ، وَأَجَزْتُهُ: خَلَفْتُهُ وَقَطَعْتُهُ"(٣).

فهنا نفى أن ينتقل ويتجاوز الضر من الحسود إلى محسود، بل أثبت وقوع الضر على الحسود نفسه، وجاء التعبير بالفعل المضارع ليثبت إقامة الضر متجدِّدًا في بدن الحسود وعدم تحوُّله عنه، وإسناد المجاوزة للضر مجاز العقلي لعلاقة السببية، وهو كما قال الشيخ عبد القاهر:" وهذا الضربُ منَ المجاز على حدَّته كنزٌ من كنوزِ البلاغةِ، ومادَّةُ الشاعرِ المُفْلِق والكاتبِ البليغِ في الإبداع والإحسانِ، والاتِّساع في طرقِ البيان، وأنْ يجيءَ بالكلام مَطبوعًا مصنوعا، وأن يضَعه بَعيدَ

(١) التحرير والتنوير ٦٧/٤.

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة:(غيظ).

(٣) مقاييس اللغة، مادة:(جوز).

المرامِ، قريبًا منَ الأفهامِ. ولا يَغُرَّنَّكَ مِنْ أمرِه أنَّك تَرى الرجُلَ يقولُ: "أتى بيَ الشوقُ إلى لقائكَ، وسارَ بيَ الحنينُ إلى رؤيتك، وأقدَمني بلدَك حقٌّ لي على إنسان، وأشباهُ ذلك مما تَجدُه لِسعَته وشُهْرته يَجْري مَجْرى الحقيقةِ التي لا يُشْكِلُ أمرُها، فليس هو كذلك أبدًا، بل يَدِقُّ ويَلْطُفُ حتى يَمْتِنعَ مثْلُه إلاَّ على الشاعرِ المُفْلِق، والكاتبِ البليغِ، وحتى يأتيَك بالبِدعةِ لم تَعرفْها، والنادرةِ تأنَقُ لها"(١).

هذا والمتأمل في الجمل التي تحدث فيها أكثم عن الحسد يجد أنها جاءت على حذو واحد في الصياغة، كل جملة تسلُّمك إلى التي تليها، فكلها مبدوءة بالفعل المضارع لما له من قدرة تامَّة على تصوير الأحداث ورصدها، ويجعلك حاضرًا داخل المشهد تراه بعينك وتسمعه بأذنك، ثمَّ إنَّها جاء معطوفة على بعضها لقصد التشريك في الحكم والإعراب، وإعطاء الحسود مجموعة من الأمراض المخصوصة به، فجمع هذه الأمراض مقصد من مقاصد الكلام قامت به الواو خير قيام، قال الشيخ في دلائله:" واعلمْ أنَّه إذا كان المخَبرُ عنه في الجملتين واحدًا كقولنا: "هو يقولُ ويفعلُ، ويَضُرُّ ويَنْفَعَ، ويُسيءُ ويُحْسِنُ، ويأمُرُ ويَنْهى، ويَحُلُّ ويْعقِد، ويأخُذُ ويُعْطي، ويَبيعُ ويَشْتَري، ويأكُلُ ويشرَبُ" وأشباه ذلك، ازدادَ معنى الجمعِ في "الواو" قوة وظهورًا، وكان الأمْرُ حينئذٍ صريحًا. وذلكَ أنَّك إذا قلتَ: "هو يَضُرُّ وينفعُ"، كنتَ قد أفدتَ "بالواو" أنكَ أوجبتَ له الفعلينِ جميعا، وجعلَته يفعلُهما معا، ولو قلتَ: "يَضرُّ ينفعُ": من غير "واو" لم يجبْ ذلك، بل قد يجوزُ أن يكونَ قولُكَ "ينفعُ"، رجوعا من قولك "يضرُّ" وإبطالاً له"(٢).

ومن مجيء الجمل على حذو واحد – أيضًا– أنَّها بدأت مخبرةً عن وجود تعب وانتهت بإثباته، وبُنيت مفرداتها على الكلمة ونظيرتها فجاءت لبناتها من واد واحد فنراه يحدثنا عن " يتعب، ويشغل، ويثير، لا يجوز" ثم حدثنا عن" القلب، والفكر، والغيظ ، والنفس" وكل هذه الألفاظ من أسرة واحدة وواد واحد متماسك

(١) دلائل الإعجاز صـ ٢٩٥.

(٢) المرجع السابق صـ ٢٢٦.

البناء قريب الصِّلة ببعضه ممَّا جعل هذه الجمل متماسكة، تصور بدقة ما يصنعه الحسد بالحسود- وهذا من الأمور التي جاءت على غير ما يفعله غيره من الكُتَّاب؛ لأنَّهم في هذا الأمر يذكرون مَّا يفعله الحسد بالمحسود، أمَّا أكثم فقد جرى طريقته التحذير من الحسد على بيان ما يفعله الحسد بالحسود فجعله لا يهنأ بعيش ولا يرقد بسلام، ومن ثَمَّ فإنَّه سيؤثر راحته على راحة غيره، لا سيَّما إذا أيقن أنَّه لن ينال مغنمًا بحسده إلَّا أتعب قلبه وأشغل عقله وأثار غضبه.

ثم نادى أكثمُ قومه مرَّة أخري، وكأنَّه أحسَّ أنَّه أطال عليهم في وصيَّته، وأنَّ عقولهم قد شردت عنه، فأراد أن يوقظهم مرة أخرى؛ ليستقبلوا فصلًا آخر لا تقلُّ أهميَّته عما سبق ذكره من قبل، فناداهم بالأداة التي ينادي بها البعيد؛ لأهميّة ما يلقيه عليهم وبُعد منزلته، ثمَّ إنه مدَّ صوته في السماء؛ ليجمع شتات عقولهم فيُقبلون عليه بقلوبهم وأجسادهم، ثمَّ إنَّه نسبهم إلى جدِّهم الأكبر- تميم- الذي فيه عزُّهم وفخرهم، وفي هذه النسبة حملٌ لهم على حسن الإنصات والتَّأسي بمَن سبقهم، وكأنَّه يريد أن يقول لهم: إذا أردتم أن تكونوا خير خلفٍ لخير سلف، وأن تربطوا المجد القديم بمجد جديد فأنصتوا لوصيَّتي وطبِّقوها، فقال لهم:

"يَا بني تَمِيم: الصَّبْر على جرع الْحلم، أعذب من جني ثَمَر النَّدَم، وَمن جعل عرضه دون مَاله، استهدف الذَّم، وكلم اللِّسَان، أنكى من كلم الحسام، والكلمة مرهونة مَا لم تنجم من الْفَم، فَإِذا نجمت فَهِيَ سبع محرب، أَو نَار تلهب، وَلكُل خافية مختفٍ، وَرَأى الناصح اللبيب دَلِيل لَا يجور، ونفاذ الرَّأْي فِي الْحَرْب، أنفذُ من الطعْن وَالضَّرْب"

وقوله:" **يَا بني تَمِيم**" أسلوب إنشائي محرِّك للقلوب ومحفز للعقول كي تُقبل عليه، استخدم فيه أسلوب النداء، وأداته" يا"، وهي أكثر الأدوات استعمالًا بما تحويه من مقطع صوتي مفتوح يجعل الصوت في امتداد متسع تنطلق مع هذا الامتداد كلمات تدل على مدى شعور وعاطفة وصدق قائلها، والإضافة في قوله" بني تميم" إضافة تشريف وتعظيم، وفيها حسٌّ على حسن الاستماع والتأسي بمَن سبق.

هذا وأوَّلُ ما تَشَكَّل منه وصيَّته بعد هذا النداء أنه حثَّهم على التَّحلي بالحلم والصبر على هذا الحلم، فقال:" **الصَّبْر على جرع الْحلم، أعذب من جني ثَمَر النَّدَم**"

والصبر يطلق ويُراد به إمَّا الْحَبْسُ، وَإِمَّا أَعَالِي الشَّيْءِ، وَإِمَّا جِنْسٌ مِنَ الْحِجَارَةِ(١). والمراد به هنا: الحبس، فهو يريد منهم أن يحبسوا أنفسهم عن العجلة والتسرع؛ لأن الحلم هو ترك العجلة، وإن كان المعنى الأول للكلمة يقود للمعنى الثاني، فمَن صبر على جرع الحلم وصل إلى أعالي الأشياء عزًّا ومجدًا وفخارًا.

وجاء الصبر هنا معرَّفًا بـ" أل" الدالة على الاستغراق، فهو يريد جنسَ الصبر وبلوغَهم الغاية في التَّحلِّي به فلا يَبْعُد إذا قلنا: إن هذه اللام يراد بها لام الكمال، فالصبر الكامل الخالي من التسرع والطَّيش هو ما يجعل صاحبه يصلُ إلى ما أراد.

وحرف الجر" على" أفاد استعلاء الصبر على الطيش والتسرُّع، ويُبيِّن أن الطريق صعب يحتاج إلى ضبط النفس وإلجامها بالصبر.

وقوله:" جرع الحلم" استعارة مكنية، حيث شبَّه الحلم بشيء يُتجرَّع كالماء ونحوه، ثم حذف المشبه به وذكر شيئًا من لوازمه، وإثبات هذا اللازم للمشبه استعارة تخيلية وهي قرينة المكنية، والاستعارة جعلت الحِلم شيئًا محسوسًا يُتجرَّع وله مذاقٌ مُرٌّ ولذا يحتاج إلى الصبر عليه، ويُبين التعبير أنَّ هذا المذاق المر يكون أعذب من الدخول في أمر ما بتسرُّع وطيش فيجلب ندم الدهر على فاعله، ولذلك قال: " **أعذب من جني ثَمَر النَّدَم**"

والشيء العذب هو الطيِّب، يقال:" عَذُبَ الْمَاءُ يَعْذُبُ عُذُوبَةً، فَهُوَ عَذْبٌ: طَيِّبٌ. وَأَعْذَبَ الْقَوْمُ، إِذَا عَذُبَ مَاؤُهُمْ. وَاسْتَعْذَبُوا، إِذَا اسْتَقَوْا وَشَرِبُوا عَذْبًا"(٢).

وهو من باب التفضيل الذي يَرِدُ وهو على غير بابه إذ لا عذوبة في جنى ثمر النَّدم ولا عذوبة أيضًا في تجرُّع المر، لكنه يشير إن ما يحسُّ به البعض من

(١) مقاييس اللغة، مادة:(صبر).

(٢) مقاييس اللغة، مادة:(عذب).

المتعة المصطنعة في التَّصرُّف بطيش وتسرع، وأنها سرعان ما تـزول وتنـدمل حينها لا يجد هذا الطائش إلَّا ندمًا.

وقوله:" **جني ثَمَر النَّدَم**" استعارة تبعية، حيث شبه الندم وهو شيء معنـوي بنوع من الأشجار له ثمر يُجنى، ثم حذف المشبه به وذكر بعضًا من لوازمه وهـو الثمر، وإثبات لازم المشبه به للمشبه استعارة تخيلية وهي قرينة المكنيـة، وذكـر الجني هنا ترشيح للاستعارة.

هذا والتعبير بالاستعارة صوَّر هذه الأمنيات الزائفة التـي يلقيهـا الشـيطان لهؤلاء الطائشين؛ حيث يمنِّيهم بالظفر والنصر والعلو والرفعة، وكلها آمال كاذبـة، وأكثم جعل الندم شجرًا يُغرس ويكبر ويزهو ويثمر لكن عند جَنْيه لن يجني غارسه إلَّا ندمًا، ولو قال: أعذب من جني الندم لوصل إلى مراده لكن التعبير بالثمر الـذي فيه مطمع صوَّر هذه الأمنيات الزائفة الكاذبة، وإن كان الطريق من بدايتـه نـدم ونهايته ندم؛ لأن الشجرة لا تثمر إلَّا جنسها، فلو كان الندم شجرًا فلن يثمر إلَّا ندمًا.

ثم انتقل أكثم إلى فقرة أخرى من فقرات وصيَّته عطفها على الجملة السابقة؛ لأنها فرع عنها ومتولِّدة منها، فالذين يجرون وراء طيشهم لا يفكرون إلَّا في متعتهم ولا يشغلون أنفسهم بالتفكير في معالي الأمـور ومـن أهمهـا المحافظـة علـى الأعراض، فقال أكثم:" **وَمن جعل عرضه دون مَاله، استهدف الذَّم**"

العطف بين الجملتين؛ لاتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى إلى جانب اتفاقهمـا في الغرض العام وهو تقديم النُّصح لأهله، و"مَنْ" اسم شرط جازم مبني في محـلّ رفع مبتدأ، وهو دالٌّ على عموم العقلاء، والتعبير به يُشيع هذا الحكم في كلِّ عاقل عَطَّل عملَ عقله فآثر ماله على عرضه وفارق قول سيدنا حسان بن ثابت إذ يقول:

وَالمَالُ يَغْشَى رِجَالًا لَا طَبَاخَ لَهُم ... كَالسَّيْلِ يَغْشَى أُصُولَ الدِّنْدِنِ البَالِي

أَصُونُ عِرْضِي بِمَالِي لَا أُدَنِّسُهُ ... لَا بَارَكَ اللهُ بَعْدَ العِرْضِ فِي المَالِ

أَحْتَالُ لِلْمَالِ إِنْ أَوْدَي فَأَجْمَعُهُ ... وَلَسْتُ لِلْعِرْضِ إِنْ أَوْدَي بِمُحْتَالِ(١).

فالعاقل من قَدَّم عرضه على ماله فجعله نظيفًا مَصَانًا، وهذه وصيَّة أكثم لأهله أن يُقَدِّمُوا سلامةَ أعراضهم وألَّا يُقَدِّمُوا على العرض مالَهم، ومعلوم ما للعِرض من مكانة سامية ومرموقة عند العرب، وقد قامت حروب ورويت بطولات في المحافظة على العرض.

و"جعل" فعل ماض مبني في محلّ جزم فعل الشرط، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو و"الجعل تغيير في صورة الشيء بإيجاد الأثر فيه وبغير ذلك، ألا ترى أنك تقول جعل الطين خزفاً وجعل الساكن متحركا"(٢)، وعليه فالأصل أن يبقى العِرض نظيفًا شريفًا مُهَابًا مقدَّمًا على المال، ومَنْ غَيَّرَ هذا الأصلَ فأخَّر عرضه على ماله وجعله دونًا، والدُّون " أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الْمُدَانَاةِ وَالْمُقَارَبَةِ. يُقَالُ هَذَا دُونَ ذَاكَ، أَيْ هُوَ أَقْرَبُ مِنْهُ. وَإِذَا أَرَدْتَ تَحْقِيرَهُ قُلْتَ دُوَيْنَ.. وَيَقُولُونَ أَمْرٌ دُونٌ، وَثَوْبٌ دُونٌ، أَيْ قَرِيبُ الْقِيمَةِ، والشَّيْءِ الدُّونِ، أَيِ الْهَيِّنِ (٣).

ومصير هذا الذي غيَّر الأصل عند أكثم قال فيه:" استهدف الذَّم" أي: جعل نفسه هدفًا للذَّم، وجعل سيرته على كلِّ لسان، والتعبير به كناية عن الحمق والخرق؛ لأنَّ مَنْ يجعل نفسه هدفًا للذَّم من قِبَلِ الناس لا يكون في عداد العقلاء، والألف والسين والتاء في أوَّل الفعل دالَّةٌ على الطَّلب لأنَّه هو الذي نَصَّبَ نفسَه في هذا المقام الوضيع، والهدف "أُصَيْلٌ يَدُلُّ عَلَى انْتِصَابٍ وَارْتِفَاعٍ. وَالْهَدَفُ: كُلُّ شَيْءٍ عَظِيمٍ مُرْتَفِعٍ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الرَّجُلُ الشَّخِيصُ الْجَافِي هَدَفًا.. وَالْهَدَفُ: الْغَرَضُ. وَرَكَبٌ مُسْتَهْدِفٌ: عَرِيضٌ"(٤).

---

(١) ديوان حسان بن ثابت صـ١٩٢، شرح وتقديم الأستاذ: عبدأ علي مهنَّا، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت– لبنان، ط: الثانية ١٤١٤ه-١٩٩٤م.

(٢) الفروق اللغوية صـ٣٧٦.

(٣) مقاييس اللغة، مادة:(دون) بتصرف.

(٤) مقاييس اللغة، مادة:(هدف).

فالمعنى يدور حول الظهور والبروز، وعليه فالذي يُقدِّم ماله على عرضه جعل عرضه بارزًا ظاهرًا أمام ألسنة القوَّالين، والأعراض إنَّما ينبغي أن تكونَ مصانة ملفوفة بثياب الستر والصون.

والذم خلاف الحمد و" الحمد: هو الثناء باللسان على الجميل، سواء تعلق بالفضائل كالعلم، أم بالفواضل كالبر، وهما يدلان على الفعل، وحمد المكلف يدل على استحقاقه للثواب بفعله ولا يكون إلَّا عن إحسان، وذم المكلَّف يدل على استحقاقه للعقاب بفعله، ولا يكون إلا على القبيح، والذم يستعمل في الفعل والفاعل فتقول ذممته بفعله وذممت فعله "(١).

وعليه فالذي جعل نفسه هدفًا للذم بتقديم المال على العِرض يُذم على فعله، ويذم بفعله؛ لأنَّه آثر ما لا بقاء له ولا مفاخرة فيه على الدائم الباقي الذي يتبارى فيه أهل المروءة والنَّخوة.

هذا ولمَّا كان الذَّم يقع من ألسنة المتكلمين، فالألسنة آلة الذم، يبين هنا أنَّ الكلمة التي تخرج من اللسان بالطعن في العرض أنكى وأغيظ وأغلظ من الطعن بالسيوف، فقال:" **وكَلْمُ اللِّسانِ أَنْكَى مِنْ كَلْمِ الحُسَامِ**" فالعطف بين هذه الجملة وما قبلها ظاهر وواضح، فهذه الجملة خرجت من رحم الجملة السَّابقة ومتفرِّعة منها، إلى ما بينهما من الاتِّفاق في الخبرية لفظًا ومعنى واتِّفاق في الغرض العام.

والمراد بكَلْم اللسان: النطق المُفْهِم الموجع، وأنكى أفعل تفضيل من الفعل نكا، يقال: يُقَالُ: نَكَيْتُ فِي العدُوّ أَنْكِي نِكَايَةً فَأَنَا نَاكٍ، إِذَا أَكْثَرتَ فِيهِمُ الجِراح والقَتْل، فوَهَنوا لِذَلِكَ"(٢)، والتعبير بأفعل التفضيل يُبيِّن أنَّ كَلْمَ اللسان قد بلغ درجة عالية وجارحة لا تُتَحمَّل، ولا يستطيع كلمُ الحسام أن يناطحه في تأثيره.

والمراد: إنَّ ما تحدثه هذه الألسن من التكلُّم في العِرض لهو أشدُ ألمًا مما تُحدثه السيوف في البدن من الطعن والتقطيع ، والتعبير بقوله:" كَلم" من قبيل

(١) الفروق اللغوية صـ٢٠١، ٤٧١،

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ١١٧/٥.

الجناس، حيث تكررت الكلمة مرَّتين في اللفظ مع الاختلاف في المعنى، فالأولى بمعنى الكلمة المُفْهِمَة الموجِعَة، والثانية بمعنى الضرب والطعن، وقد أحدث التعبيرُ بالجناس نوعًا من المخادعة اللَّطيفة؛ لأنَّه خدعنا وأوهمنا أن المراد باللفظة الثانية هو عينُ المراد في اللفظة الأولى، فإذا به يغاير بينهما في المعنى، وجاء هذا الإدراك بالمغايرة بعد تنشيط عقل وإعمال ذهن ممَّا رسَّخَ المعنى في ذهن السامعين؛ لأنَّه جاء بالفائدة من طريق غير متوقَّع، قال الشيخ- رحمه الله تعالى:" ومَبْنَى الطباع وموضوعُ الجِبِلَّة، على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يُعْهَد ظهوره منه، وخرج من موضعٍ ليس بمعدِنٍ له، كانت صَبَابةُ النفوسِ به أكثر، وكان بالشَّغَف منها أجدر، فسواءٌ في إثارة التعجُّب، وإخراجك إلى روعة المستغربِ، وُجودُك الشيءَ من مكان ليس من أمكنته، ووجودُ شيءٍ لم يُوجَد ولم يُعرَف من أصله في ذاته وصفته"(١).

هذا والجناس من قَبِيل الجناس التام المماثل، وقد أدَّى الجناس دوره في إحداث حالة من التناغم والتفاعل الموسيقي، فالكلمات حينما تأتي على وتيرة واحدة متَّحدة في المباني والحروف تطرب لها الآذان، وتتفاعل معها المشاعر والأحاسيس، وهذا يدل على أهمية الدور البارز الذي يُدخله الجناس على النص الأدبي من خَلْق موسيقى داخليَّة في النص مؤثرة في النفس والحِسِّ.

هذا وعند التَّأمل في المعاني التي تحملها هذه الجمل تدرك أنها خرجت من رجل مجرِّب، يعلم خطورة الكلمة ويقدِّر المواقف حقَّ قدرها؛ لأنَّه يجعلك تتساءل لماذا كان كلم اللسان أنكى من كلم الحسام؟ ثم يتركك تغوص في أعماق عقلك وأغوار نفسك؛ لتدرك الفرق بين كَلْمٍ وكلْم، وتعلم ما للعِرْضِ من مكانة وما للكلمة من خطورة.

(١) أسرار البلاغة صـ١٣١.

وعند النظر والتأمل نجد أن الجراحات التي تحدثها الألسنة جراحاتٌ لا تبرأ بخلاف ما تحدثه السيوف والأسنَّة فإنَّ لها مدة تبرأ فيها كما قال الشاعر:

وَجُرْحُ السَّيْفِ تَأسُوه فَيَبْرَا ... وَجُرْحُ الدَّهْرِ مَا جَرَحَ اللِسَانُ

جِرَاحَاتُ الطِّعَانِ لَهَا التِئَامُ ... وَلَا يُلْتَامُ مَا جَرَحَ اللّسَانُ (١)

فجرح اللسان لا سيما إذا كان متعلِّقًا بالأعراض لا يلتئم ولا يموت بل يظلُّ كابوسًا يطارد صاحبه أينما حلَّ وارتحل فلا ينعم بعيش ولا يتمتع بدنيا.

هذا وقد ورد عن أكثم: كَلْم اللسان أنكى من كَلْم السنان، والسنان: ما يُرَكَّب في رأس الرمح من الحديد المسنون المُحَدَّب لكي يخترق ما يقف في طريقه، وفي التعبير بالسنان سجع متوازي؛ لاتِّفاق الفاصلتين في الوزن والقافية، ولا تقل أهمية التعبير به عن التعبير بالجناس في الرواية الأولى من حيث أنه أحدث نغمة مؤثرة وموسيقى قويَّة تطرب لها الآذان، وتهش له النفوس، فتُقبل على السَّماع ولا ملل عندها ولا فتور عندئذٍ تفتح الطرق الموصِّلة إلى القلوب فتتمكن منها المعاني تَمَكُّن الثابت المقيم المحبوب، كما أنَّ التعبير بالسجع يجعل هذه الحكم والأمثال باقية وخالدة؛ لأنه يوطِّن حفظها لما لها من خفة على الألسنة.

هذا ولمَّا قرر أكثم ما للكلمة من خطورة فاقت خطورة الطعن بالرماح والضرب بالسيوف بَيَّنَ في الجملة التالية ما ينبغي على العاقل من استبقاء هذه الكلمة حبيسة في الفم، فلا تغادره إلى الخارج أبدًا؛ إذ لو تُرِكَ لها العنان وخرجت فإنه لا يستطيع السيطرة عليها؛ لأنها ستصير كالسبع في الافتراس أو النار الهائلة التي لها لهب، فقال أكثم:" **والكلمة مرهونة ما لم تنجم من الفم فإذا نجمت فهي سبع محرب أو نار تلهب**" هذه الجملة وُلدت من رحم الكلام السابق، فهي مبنيَّةٌ عليه ومتفرِّعةٌ عنه؛ ولذلك فالعطف بينهما للتوسط بين الكمالين، فالجملتان متفقتان في الخبرية لفظًا ومعنى إلى ما بينهما من الاتِّفاق في الغرض العام، وهو بيان ما تُحدثه الكلمة في العِرض من جراح هي أنكى ممَّا تحدثه السيوف والرماح.

---

(١) العقد الفريد ٢/٢٨٠، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (ت: ٣٢٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ.

ولا شكَّ أنه أراد بالكلمة هنا الكلمة الناقدة الجارحة الطاعنة في العِرض، فهي الكفيلة بإحداث تلك الجراحات بخلاف كلمة المدح والإطراء التي تُخَلِّد ذكر الممدوح بها، وعليه فاللام في " الكلمة" هي لام العهد الخارجي الصريح؛ لكونها معلومة وإن لم يسبق لها ذكر.

وقوله:" مرهونة" " الرَّاءُ وَالْهَاءُ وَالنُّونُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى ثَبَاتِ شَيْءٍ يُمْسَكُ بِحُقٍّ أَوْ غَيْرِهِ" فهذه الكلمة إذا كانت حبيسة في الفم فإنها تُثبت شيئًا من الفخار وحقًّا لِمَن تناله إذا هي خرجت، وجاء التعبير بها على صيغة اسم المفعول دالَّةً على الثبوت والدوام تاركةً للعزَّة الموجودة في التعبير باسم الفاعل إذ هو القائم بالفعل فتكون راهنة لا مرهونة، وهذا يُشير إلى ضرورة الحكم على هذه الكلمة الموجعة بالبقاء في قيد الذل والرهن واليُبْس في الفم.

وقوله:" **ما لم تنجم من الفم**" هذا شرط كونها مرهونة، فإذا اختل الشرط انتقلت الكلمة من حال الرهن واليُبس إلى حالة أخرى يستحيل السيطرة عليها.

و"ما" اسم شرط بمعنى إذا، والتعبير بالفعل المضارع" تنجم" دالٌّ على التَّجدُّد والاستمرار واستحضار الصورة الماضية لها، لاستبقاء رهنها، فأكثم أرادها ألَّا تنجم اليوم ولا غدًا ولا أبدًا.

أمَّا مجيء الفعل من مادة " نجم" التي تدل على الطلوع والظهور فإنه يؤكِّد معنى أنها مستورة متواراة ما لم تنجم من الفم لكن إذا نجمت فإنها ستكون كالنجم المضيء في شدة الظهور والوضوح وعدم إمكانية حجب رؤيته عن الناس، كما يؤكَّد أنها- الكلمة- إذا خرجت ستترك ما كانت عليه من الوهن والضعف، وستتحول إلى حالة أخرى هي أشد قوة بحيث لا يمكن السيطرة عليها أو مجرد تقيد حريتها بعض الشيء ولذا شبهها أكثم بعد خروجها بشيئين خطيرين، أولهما: السبع المحرَّب والثاني: النار التي تلهب فقال: " **فإذا نجمت فهي سبع محرب أو نار تلهب**"

الفاء في قوله:" فإذا نجمت" للتفريع، "وإذا ظرف لما يستقبل من الزمان وَتَتَضَمَّنُ مَعْنَى الشَّرْطِ غَالِبًا، لِأَنَّ مَعَانِيَ الظُّرُوفِ قَرِيبَةٌ مِنْ مَعَانِي الشَّرْطِ لِمَا فِيهَا مِنَ التَّعْلِيقِ"(١).

والتعبير بـ" إذا" التي هي للشرط متحقِّق الوقوع يعكس انفلات أمرها وصعوبة السيطرة عليها، وفي التعبير بالفعلين (تنجم، ونجمت) استعارة تبعية، حيث شبه الخروج بالنجوم بجامع الظهور والوضوح في كلٍّ، ثم استعير من النجوم الفعلين٠ تنجم، ونجمت) على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل، واستخدام الاستعارة هنا يقوي معنى الظهور والبروز أمام كلِّ الناس، هذا بخلاف استخدام الخروج فإنها قد تخرج ولا يُكتب لها الظهور المطلوب، وقد لا يُكتب لها ظهور أصلًا.

هذا وقد ورد عن أكثم" والكلمة مذمومة" فالتعبير بمذمومة يرشح معنى أنه أراد كلمة السوء الطَّاعنة في عرض المرء.

وقوله:"**فهي سبع محرب**" إذا في الكلام السابق مشربة معنى الشرط فلذا اقترنت جملة جوابها بالفاء الرابطة للجواب، وجملة "هي سبع" من قبيل التشبيه، حيث شبه الكلمة التي نجمت من الفم،وانفلت زمامها بالسبع وهو الحيوان المعروف، والوجه هو الوحشية وعدم إمكان السيطرة عليه ولاتحجيمه، والتشبيه من قبيل التشبيه البليغ محذوف الوجه والأداة، ومن ثَمَّ قوي فيه جانب الادِّعاء، ثم إنَّ أكثم لم يشبه الكلمة بأي سبع من السباع إنما قيَّد السبع بكونه سبعًا محرَّب أي: مُستعِد للحرب، وهذا الوصف يجعل التعبير أقوى في الدلالة على عدم إمكان القدرة عليه.

ثمَّ عدد أكثم المشبه به، فقال:" أو نار تلهب" وها ما يعرف عند علماء البلاغة بتشبيه الجمع، وهو أن يتعدد المشبه به لمشبَّه واحد كما في قول البحتري:

كأنما يَبْسَمُ عن لؤلؤٍ ... منضَّدٍ أو بَرَدٍ أو أَقَاح (٢).

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٥/٨ بتصرف.

(٢) المطول في شرح تلخيص المفتاح صـ٣٣٨. وورد في ديوان البحتري بلفظ: كأَنَّمَا يَضْحَكُ عَنْ لُؤلُؤ... مُنَظَّمٍ أَوْ بَرَدٍ أَوْ أَقَاح، ينظر ديوان البحتري شرح حسن كامل الصيرفي، دار المعارف– مصر ١٧٦/١.

وهنا شبه الكلمة بالنار والوجه هو الجموح وعدم السيطرة في كلٍّ، ثمَّ إنه بالغ في وصف هذه النار فجعلها تلهب، ووصف هذه النار بأنها تلهب فيه تأكيد لحقيقة هذه النار ووصف لشدتها فإنَّ وجود اللهب علامة على هذه الشِّدة والقوة.

هذا وإسناد التَّلَهُب إلى النار مجاز عقلي لعلاقة السببية، وفي التعبير بالمجاز مبالغة في وصف هذه النار بالقوة والشِّدة ممَّا يجعل السيطرة عليها صعبة المنال إذا لم تكن مستحيلة.

ثمَّ قال أكثم:" **وَلكُل خافية مختفٍ، وَرَأى الناصح اللبيب دَلِيل لَا يجور، ونفاذ الرَّأْي فِي الْحَرْب، أنفذُ من الطعْن وَالضَّرْب**"

لمَّا ذكَّرهم بخطورة الكلمة، وما لها من وقْع على النفوس والأبدان، ونصحهم أن يُبقوا هذه الكلمة في منبتها لا تفارقه أبدًا، وأعلمهم أنها ستتحول إلى شيء لا يمكن السيطرة عليه إذا فارقت موضعها، أخبرهم هنا أن لكلِّ أمر مستور شخصًا يتخفَّى له ليظهره بل ويحتفي بإظهاره، والخافية كلمة لها أصلان متباينان" فَالْأَوَّلُ السَّتْرُ، وَالثَّانِي الْإِظْهَارُ. فَالْأَوَّلُ خَفِيَ الشَّيْءُ يَخْفَى، وَأَخْفَيْتُهُ، وَهُوَ فِي خِفْيَةٍ وَخَفَاءٍ، إِذَا سَتَرْتَهُ، وَيَقُولُونَ: بَرِحَ الْخَفَاءُ، أَيْ: وَضَحَ السِّرُّ وَبَدَا، وَيُقَالُ لِمَا دُونَ رِيشَاتِ الطَّائِرِ الْعَشْرِ، اللَّوَاتِي فِي مُقَدَّمِ جَنَاحِهِ: الْخَوَافِي. وَالْخَوَافِي: سَعَفَاتٌ يَلِينَ قَلْبَ النَّخْلَةِ، وَالْخَافِي: الْجِنُّ. وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ الْمُسْتَتِرِ مُسْتَخْفٍ.

وَالْأَصْلُ الْآخَرُ خَفَا الْبَرْقُ خَفْوًا، إِذَا لَمَعَ، وَيَكُونُ ذَلِكَ فِي أَدْنَى ضَعْفٍ. وَيُقَالُ خَفَيْتُ [الشَّيْءَ] بِغَيْرِ أَلِفٍ، إِذَا أَظْهَرْتَهُ. وَخَفَا الْمَطَرُ الْفَأْرَ مِنْ جِحَرَتِهِنَّ: أَخْرَجَهُنَّ"(١).

والجملة التي معنا تجسد هذا التضاد في معنى الكلمة، فالخافية الأولى مستترة عن عيون وعقول الناس، والمختف يريد أن يجعلها لامعة ظاهرة بادية للناس، وهذا أمرٌ عامٌّ يعتري كلَّ خافية لذا عبر أكثم بـ" كل" وهو لفظ يدل على العموم

(١) مقاييس اللغة، مادة:(خفي).

والشمول، ومجيء كلمة" خافية" مفردة يقرر هذا الحكم ويؤكده ويثبته لكل خافية على حدها، ومجيئها نكرة لإرادة العموم، فإن الخافية الواحد والتي قد لا يكون لها كبير وزن عند كثير من الناس لها من يحاول إظهار ويبحث عنها للتشهير بصاحبها، وتقديم الجار والمجرور يبيِّن مدى اهتمام الناس بالخفايا وبحثهم عنها، ومجيء الخافية في صورة اسم الفاعل يثبت دوام هذا الحكم.

كما أن مجيء كلمة" مختفٍ" نكرة؛ لإرادة العموم ولتوسيع دائرة توقع وجود هذا المختف في قطاع عريض من الناس، ولإفادة تحقير هذا الذي يحاول التشهير بالناس، ويعبث بأسرارهم التي حرصوا أن تكون كامنة في الستر والخفاء.

هذا وكما بدأ أكثم بن صيفي وصيَّته بالحديث عن تجاربه ورأيه وبيان نصحه لهم؛ ليجذب انتباههم إليه ويحفِّزهم على العمل بوصيته، وقد أحسن البدء بذلك، وهذا من براعته في الاستهلال، كذلك ختم وصيته بالحديث عن جودة رأيه وإخلاص نصحه وقوة عقله؛ ليحملهم على الأخذ بهذه الوصية التي جمعت لهم ما يجعلهم في المقدِّمة بين أبناء جلدتهم، وهذا ما يسمى بحسن الانتهاء، وهو" أن يختم المتكلِّم كلامه ختامًا حسنًا في ألفاظه ومعانيه، ملائمًا لما قبله ومناسبًا للموضوع الذي يقول فيه؛ لأنَّ ختام الكلام آخر ما يعيه السمع ويرتسم في النفس، فإن كان مختارًا مستوفيًا شروط الحسن جبر ما سبقه من تقصير ورسخ في الذهن، وإن كان بخلاف ذلك ترك انطباعًا سيِّئًا، وربما أنسى محاسن ما قبله"(١).

فأكثم ردَّ عجز كلامه على صدره، ففي أول الكلام قال:" يَا بني تَمِيم لَا يفوتنكم وعظي إِن فاتكم الدَّهْر بنفسي، إِن بَين حيزومي وصدري لبحرًا من الْكَلم، لَا أجد لَهُ مواقع غير أسماعكم، ولَا مقار إِلَّا قُلُوبكُمْ فتلقوها بأسماع صَافِيَة، وَقُلُوب وَاعِيَة، تحمدوا عواقبها" وهنا قال:" وَرَأى الناصح اللبيب دَلِيل لَا يجور، ونفاذ

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ١٥٥/٦، دراسات منهجية في علم البديع صـ١٢٣، أد/ الشحات محمد أبوستيت.

الرَّأْي فِي الْحَرْب، أنفذُ من الطعْن وَالضَّرْب" فأحسن في البدء والختام، فبدأ بتمجيد رأيه وانتهي بتمجيده.

والواو في قوله:" **وَرَأى الناصح اللبيب دَلِيل لَا يجور**" عاطفة للجمل وسر العطف هنا هو التوسط بين الكمالين، حيث اتفقت الجملتان في الخبرية لفظًا ومعنى، والرأي مأخوذ من" أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى نَظَرٍ وَإِبْصَارٍ بِعَيْنٍ أَوْ بَصِيرَةٍ. فَالرَّأْيُ: مَا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ فِي الْأَمْرِ، وَجَمْعُهُ الْآرَاءُ"(١).

والناصح هو الذي" يَتَحَرَّى فِعْلًا أو قَوْلًا فيه صلاحُ صاحبِهِ، ومن شأنه أن يتَّسم بالود والإخلاص، مأخوذ من قولهم:" نَصَحْتُ له الوُدَّ، أي: أَخْلَصْتُهُ، ونَاصِحُ العَسَلِ: خَالِصُهُ (٢)، ولمَّا أراد الشيطان غواية الأب الأول آدم- عليه السلام- وزوجه توجَّه بالقسم لهما أنَّه يريد نصحهم، قال الله تعالى:" وَقَاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ" (الأعراف:٢١)

فأكثم يرسخ لرأيه وهو الناصح المخلص فحقُّه أن يوضع في عين الاعتبار، ثمَّ إنه أضاف صفة أخرى من شأنها أن تعزِّز هذا الرأي عند متلقيه، فهذا الرأي خارج من ناصح ولبيب، واللب" هو العقل الخالص من الشّوائب، وسمّي بذلك؛ لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه، كَاللُّبَابِ واللُّبِّ من الشيء، وقيل: هو ما زكى من العقل، فكلّ لبّ عقل وليس كلّ عقل لبّا. ولهذا علّق الله تعالى الأحكام التي لا تدركها إلّا العقول الزّكيّة بأولي الْأَلْبَابِ نحو قوله: (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً) إلى قوله:" (أُولُوا الْأَلْبَابِ)" [البقرة/ ٢٦٩] (٣).

وهذا من حسن فطنة أكثم أنه يكثر من عوامل الإقناع والتأثير ومحاورة العقل؛ لأن الرأي إذا كان صاحبه متصفًا بالإخلاص وحدَّة البصر وقوة البصيرة فإن هذا الرأي دليلٌ لا يجور، فالكلام مبني على المنطقية ومخاطبة العقل، ولذلك

(١) مقاييس اللغة، مادة:(رأى).

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب، مادة:(نصح) بتصرف.

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب، مادة:(لب).

أخبر أن رأي الناصح اللبيب دليلٌ موصّلٌ إلى الاستقامة، والدليل" إِبَانَةُ الشَّيْءِ بِأَمَارَةٍ تَتَعَلَّمُهَا"(١). والدّلالة: ما يتوصّل به إلى معرفة الشيء، كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالة الإشارات، والرموز، والكتابة، والعقود في الحساب"(٢).

ومجيء كلمة الدليل على صورة الاسم دالّة على ثبوت دلالة وهداية هذا الرأي، ووصفه بعدم الجور مبالغة في وصفه بالاستقامة والعدل، وإيثار التعبير بالجور دون الظلم فيه مزيد من وصف هذا الدليل بالعدل والاستقامة والدلالة على الخير وذلك لأن" الجور خلاف الاستقامة في الحكم، والظلم ضرر لا يستحق ولا يعقب عوضًا سواء كان من سلطان أو حاكم أو غيرهما ألا ترى أن خيانة الدانق والدرهم تسمى ظلمًا ولا تسمى جورًا فإن أخذ ذلك على وجه القهر أو الميل سمي جورًا، وهذا واضح، وأصل الظلم نقصان الحق، والجور العدول عن الحق" فنفي الظلم يعني أن صاحبه على الحق لكن عنده خلل في تطبيق هذا الحق كالانتقاص فيه، أمَّا نفي الجور يعني أنه لن يحيد عن طريق الحق، وإسناد نفي الجور إلى الدليل مجاز عقلي من إسناد الفعل إلى سببه لأهميَّة السبب وفاعليَّته وقوته، والجملة كلُّها باعثة على الأخذ بوصيَّته وتنفيذها، وهي تحمل بين حروفها- وهذا مضطرد في الوصية كلها- مدى الصدق في الشعور والإحساس، ومدى الرغبة في تقديم الرأي السديد لقومه؛ فهو رجل كبير قوم حريص على هدايتهم ورفعتهم وعلو شأنهم.

ثم إنه وضع جملة أخرى لا يبعُد معناها عن التي سبقتها لذلك سُوِّغ العطف بينهما للتوسط بين الكمالين، حيث إنهما متفقتان في الخبرية لفظًا ومعنى إلى ما بينهما من الاتفاق في الغرض العام، فقال:" **ونفاذ الرَّأْي فِي الْحَرْب، أنفذُ من الطعْن وَالضَّرْب**"

---

(١) مقاييس اللغة، مادة:(دل).

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب، مادة:(دل).

وهذه الجملة تحكي صورة ملحمية مبنيَّة على القوة والغلبة، وتصور وقع الضرب والطعن، وأنه ينبغي أن يكون الضرب والطعن قائمًا على رأي سديد.. متى يضرب؟ ومتى يُحجم، وأين يضرب؟ وأن حسن الرأي ونفاذه هو الذي يجعل النصر قائمًا، أمَّا إذا كان الطعن والضرب بطريقة عشوائيَّة لا رأي فيها ولا توجيه فإنَّ ضرره أكثر من نفعه وربما لا تجد له نفعًا البتة، والجملة كلها تُعَد دليلًا على الجملة السابقة، وشاهدًا على أن رأي الناصح اللبيب دليل لا يجور.

والنفاذ "أصل يَدُلُّ عَلَى مَضَاءٍ فِي أَمْرٍ وَغَيْرِهِ. وَنَفَذَ السَّهْمُ الرَّمْيَةَ نَفَاذًا. وَأَنْفَذْتُهُ أَنَا. وَهُوَ نَافِذٌ: مَاضٍ فِي أَمْرِهِ"(١).

والرأي النافذ هو الرأي الصحيح النافذ، وجاءت كلمة الرأي معرفة بلام العهد الصريح، حيث تقدم لمدخولها ذكر صريح في قوله:" ورأي الناصح اللبيب"، وهذه اللام تدل على جودة هذا الرأي وكماله وإلَّا لو كان الرأي فاسدًا وأمضاه الناس لن يجدوا خيرًا من ورائه، وحاجة الناس للرأي السديد في الحروب القائمة على الطعن والضرب والقوة دالّةٌ على حاجتهم له في غير الحروب، فوجوده ضروري ولازم في كل أمور الحياة.

وقوله:" أجدى" أي: أنفع، وأجدى الشَّيْء نفع، وَفُلَان أصَاب الجدوى(٢)، وقيل: أجدى بمعنى أعطى، وكلا المعنيين يرشحان بعضهما ويتعاونان في أداء المراد، فالرأي السديد هو الأنفع وهو الذي يعطي النصر.

وهذا أمر مشاهد في صفحات كتب التاريخ، ورأينا كيف كان النبي- صلى الله عليه وسلم- يشاور أصحابه في الأمور التي لم ينزل فيها وحي من الله تعالى، ورأينا -أيضًا-كيف انقلبت الدائرة على المسلمين في غزوة أحد لما تركوا أمر

(١) مقاييس اللغة، مادة:(نفذ).

(٢) المعجم الوسيط، باب الجيم مادة:(جدا)١/١١١، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الناشر: دار الدعوة.

رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وكل هذه المشاهد والحروب التي سُجِّلت في كتب التاريخ تشهد بصحة مقولة أكثم.

وبين قوله " الحرب، والضرب" سجع متوازي؛ حيث اتفقت الكلمتان في الوزن والتقفية، وفي التعبير بالسجع مداعبة للعقول، وحثٌّ لها على حسن التنبه، وحثٌّ للآذان على حسن الإنصات وذلك لِمَا يوجد في السجع من تناغم موسيقي يدفع الملل، ويُذهب الرتابة والفتور، فإذا أقبلت الحواس على الكلام تمكَّن المعنى في الأذهان ورسخ في القلوب، هذا إلى جانب ما يُحدثه السجع من السهولة في حفظ الكلام عن طريق ما يحدثه من إيقاع وتناغم بين الكلام، ومن ثَمَّ تُسجَّل هذه الوصية في قلوب مستمعيه من بني جلدته، وقلوب كلِّ مَن يسمعها وتُخلد إلى الأبد، وهذه غاية منشودة لدى كل ناصح لبيب.

المطلب الثالث: السمات العامة في الوصية

أولًا: وقفة مع مقدمة الوصية وخاتمتها:

عُني العلماء قديمًا وحديثًا بمقدمات كلامهم، وأوضحوا أن مقدمات الكلام ينبغي أن تكون مبنيَّة بأعذب الألفاظ وأرقها، وأن تكون جيدة النظم حسنة السبك، صحيحة المعنى، خالية من التعقيد والحشو وكلِّ ما يُعَكِّرُ وصول المراد من الكلام، وكذلك عُني العلماء بحسن الانتهاء والتخلص، واشترطوا فيه ما اشترطوه في حسن الابتداء، قال ابن رشيق:" حسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطية النجاح، ولطافة الخروج إلى المديح، سبب ارتياح الممدوح، وخاتمة الكلام أبقى في السمع، وألصق بالنفس؛ لقرب العهد بها؛ فإن حسنت حسن، وإن قبحت قبح، والأعمال بخواتيمها، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم"(١).

ومَن تأمل وصية أكثم بن صيفي في البدء والختام، يجد أنه قد اهتم بمقدمة وصيته ونهايتها، فألبسها حُلَلًا من أعذب الألفاظ وأرقها، وأحسن سبكها، فجعل كلَّ جملة متولِّدة من التي قبلها ومبنية عليها، فلا قلق بين الألفاظ ولا نباوة بين الجمل، وضمَّن مقدمته ما يشير إلى الغرض الذي سيسوقه لهم، وهذا ما اتَّضح جليًّا في تحليل مقدمة الوصية، وأحسن في انتهاء كلامه إذ ترك لهم ما يدلُّ على أهميَّة وصيَّته وضرورة الأخذ بها ليصلوا إلى السمو والرِّفعة واضعًا بين أيديهم صورة حيَّة متحرِّكة وذلك حين يقول:" ونفاذ الرَّأْي فِي الْحَرْب، أنفذُ من الطعْن وَالضَّرْب"

ثانيًا: وقفة مع الألفاظ والأساليب:

اللفظة المفردة هي لبنة الكلام وأساسه، فهي الأساس الذي يُبنى عليه، ولذلك اشترطوا فيها أن تكون فصيحة، لا تنافر في حروفها، ولا غرابة في معناها، متداولة على ألسنة الناس، جارية على قواعد اللغة، ملائمة للمعنى المراد منها، وكذلك ملائمة لجارتها، والألفاظ في وصية أكثم جاءت فخمة وجزلة وقوية مصورة

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ٢١٧/١.

لمعانيها، منتقاة بعناية شديدة من رجل برع في العربية ودانت له أساليبها، جاءت هذه الألفاظ من بيئته التي يعيش فيها، وتجنَّب الغريب الوحشي، فنراه يُعبر بـ"الهوى، والعقل، والحزم، والشهوات، واليقظة، والصبر، والطمع، والاعتبار.... وغير ذلك وهي ألفاظ في غاية السلاسة والوضوح، ولا يحتاج أهل زمانه أن يقلِّبوا صفحات المعاجم ليصلوا إلى المعاني المقصودة.

وهكذا كان الشأن في الأساليب فجاءت متسلسلة تسلسل المعاني، فذكر الهوى اليقظان والعقل الراقد والشهوات المطلقة.... وجرى في أساليبه على المقابلة والطباق، وضمنها كثيرًا من فنون البلاغة التي قامت بدور بارز وفعَّال في بيان المراد، وقد ظهر ذلك جليًّا في تحليل الوصية.

ثالثاً: **وقفة مع المعاني والصور**:

اهتم أكثم بالمعاني التي يريد أن يبثها لأهله، ومن المثير للذهن أن المعاني رُتِّبت على بعضها، يقودك كلُّ معنى إلى المعنى الذي يليه في تسلسل بديع ممَّا جعل الوصية قوية السبك متماسكة البناء، وقد ظهر هذا التماسك جليًّا في تحليل الوصية، ولذلك كثر العطف بين الجمل، وخذ مثلًا قوله:" الصَّبْر على جرع الْحلم أعذب من جني ثَمَر النَّدَم، وَمن جعل عرضه دون مَاله استهدفَ الذَّم، وكَلْمُ اللِّسَان أنكَى من كلم الحسام، والكلمة مرهونة مَا لم تنجم من الْفَم، فَإِذا نجمت فَهِيَ سبع محرب، أَو نَار تلهب، وَلكُل خافية مختفٍ، وَرَأى الناصح اللبيب دَلِيل لَا يجور، ونفاذ الرَّأْي فِي الْحَرْب، أنفذُ من الطعْن وَالضَّرْب" تجد أن المعاني في تسلسل منطقي بديع، كلُّ معنى مبنيٌّ على ما قبله، فمَن ترك الحلم وانساق وراء التهور وقع في الندم، وتقديم المال العِرض موجب للذم، وآلة الذم اللسان الذي يحدث جروحًا لا تفارق صاحبها، والتغلب على ذلك يكون باستبقاء الكلمة حبيسة في الفم وإلَّا فهي سبع في انفلات أمرها، ونار ذات لهب في صعوبة السيطرة عليها... وهكذا يقود المعنى إلى الذي يليه حتى تنتهي الوصية.

ثمَّ إنه استعان ببعض الصور في إظهار هذه المعاني كالاستعارة في قوله:" جني ثَمَر النَّدَم " وقوله:" يُتلف الحزم"، والتشبيه في قوله:" فَهِيَ سبع محرب، أَو نَار تلهب" والكناية في قوله:" تَحْمِدُوا عَوَاقِبَهَا" وكلُّ هذه الصور جاءت من البيئة التي يعيشها هذا الرجل، خالية من الصعوبة والتكلُّف.

رابعاً: وقفة مع المعجم اللغوي لدى أكثم بن صيفي:

بالنظر والتأمل في المعجم اللغوي الذي استخدمه أكثم بن صيفي نجد أنها- أي الكلمات- جاءت من عمق المعجم الإسلامي، فأغلبها كلمات قرآنية أو نبوية، وكثير من المعاني التي ساقها تتوافق مع مبادئ الإسلام، إضافة إلى خلوِّ الوصية من سمات النثر الجاهلي المشبعة بالعصبية والمبالغة الممقوتة، ممَّا يدلُّ ذلك على تأثره بالقرآن الكريم، فإن كُتَّاب السير والتاريخ وإن اختلفوا في حقيقة إسلام أكثم بن صيفي إلَّا أنهم اتفقوا أنه أرسل إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- رجالًا من قومه ولا شكَّ في أنهم رجعوا إليه، فنقلوا إليه من كلام الرحمن وتعاليم الإسلام ما ظهر جليًّا في كلامه بعد ذلك.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتنفرج الهموم والكربات، والصلاة والسلام على مسك الختام وختام المسك، سيدنا محمد وعلى الآل والصحب الكرام ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، فبعد هذه الرحلة المتأنية مع وصية أكثم بن صيفي لبنيه وقومه أسوق بعض النتائج التي توصَّلت إليها:

- جاءت هذه الوصية في ثوب بلاغي خلَّاب جمع العديد من النكات البلاغية التي كان لها دور كبير في إظهار المراد منها، وتدل دلالة واضحة على ثبات قدم الرجل في لغته، وامتلاكه الوسائل المتنوعة في عرض المراد ببلاغة تجعله نسيجًا وحده ومثالًا يحتذى به.
- جاءت الوصية متوافقة مع الفطرة السليمة التي فطر الله تعالى عباده عليها ممَّا يدل على نقاء قائلها، وهي تمثِّل بحقٍّ ما كان يتمتع به الإنسان العربي في العصر الجاهلي من الصفات الحميدة والأخلاق النبيلة والتي لا نكاد نجدها كثيرًا في عصر الانفتاح والتقدم.
- جاءت هذه الوصية لحمة واحدة متماسكة تسلسلت فيها المعاني، فلم نجد معنى نابيًا عن أخيه وإنما جاءت المعاني في تدرُّج منطقي، كُلُّ معنى يقود إلى ما خلفه ومبني على ما قبله.
- اتَّسمت هذ الوصية بالإيجاز الشديد فجاءت جملها قصيرة ومركزة، كقول: الْهوى يقظان، وَالْعقل رَاقِد، والشهوات مُطلقَة، والحزم مَعْقُول، وَالنَّفس مُهْملَة، والروية مُقَيّدَة" ومع هذا الإيجاز الشديد نجد غزارة في المعاني تحت كلِّ جملة ممَّا يثبت طلاقة لسان هذا الرجل، وتمكُّنه من أساليب اللغة، وتمتُّعه ببلاغة عالية.
- كان للعطف بين الجمل دورٌ بارزٌ في توضيح المعاني وتقريرها وإثارة الذهن وتحفيزه، وكان للتوسط بين الكمالين النصيب الأوفر في الظهور؛ وذلك لما يتَّسم به من إظهار الاتِّحاد بين الجمل في الخبر أو الإنشاء ممَّا يعكس هذا الترابط بينها.

●تنوعت الأساليب ما بين خبرية وإنشائية، وكان للأسلوب الخبري الحضور القوي الغالب؛ وذلك لأنه يسوق حقائق مُسَلَّمًا بها، لا تنكرها العقول السويَّة ولا الفطرة النقيَّة.

●أكثر أكثم من التعبير بأسلوب الشرط، وذلك لما له من حمل المخاطب على الاستجابة للمعنى المراد وذلك حين يطالع الجزاء الكبير المترتب على الفعل، أو يرى العقوبة الشنيعة المترتبة على الترك، فتقوى الرغبة في الفعل أو الترك على حسب الجزاء أو العقوبة، فيقول مثلًا: مَنْ سلك الجدد أمن العثار، ويقول: ومَنْ سمَّع سُمِعَ به، ويقول: مَنْ جعل عرضه دون ماله استهدف الذم، ويقول مبيِّنًا خطورة الكلمة:" والكلمة مرهونة ما لم تنجم مِن الفم، فإذا نجمت فهي سبع محرب أو نار تلهب"

●عُني أكثم باختيار أساليبه وألفاظه الموحية المعبِّرة، فأكثر من عبارات التلطُّف والاستعطاف؛ ليثير هذه العاطفة الكامنة له في قلوبهم، فقال:" يا بَني لا يفوتنكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي" هذه الجملة كفيلة وحدها أن تثير كوامن هذه العاطفة وتجعلهم يقبلون عليه، فكيف لو أضيف إلى هذه الجملة قوله: إِن بَين حيزومي وصدري لبحرًا من الْكَلم، لَا أجد لَهُ مواقع غير أسماعكم، وَلَا مقار إِلَّا قُلُوبكُمْ فتلقوها بأسماع صَافِيَة، وَقُلُوب وَاعِيَة، تحمدوا عواقبها". وحين يحسُّ أنه أكثر عليه يناديهم مرَّة أخرى يذكِّرهم بالمجد التليد في سابق أيامهم، ويضيف لهم من وصاياه ما يستبقون به هذا المجد، بل ويصطحبون معه مجدًا جديدًا وذلك حين يقول مرة أخرى: يا بني تميم....

●كما اتسمت هذه الوصية بعدم الإكثار من الوسائل الخيالية، فجاء التصوير فيها نادرًا؛ وذلك لأنَّ قائلها أراد أن تصل المعاني بوضوح وسهولة، لا تحتمل تأويلًا يختلف فيه فهمُ المستمعين.

●اشتملت الوصية على بعض صور البديع كالطباق والسجع، وكان لهما أكبر الأثر في تأدية المراد، وذلك حين يضع لك الشيء وضدَّه، ويخيرك بين النافع

والضار، وحين يداعب سمعك ويوقظ عقلك عن طريق التناغم الموجود في السجع، ممَّا يؤكد براعته في التأثير على المستمعين.

●جاءت هذه الوصية متماشية مع تعاليم الإسلام الحنيف، حيث دعاهم أكثم إلى مكارم الأخلاق ومنها المشاورة قبل الإقدام، والرويَّة والتأني، والصبر، وحذَّرهم من الحسد والرياء، وتقديم المال على العِرض، وبَيَّنَ لهم خطورة اللسان، وكل هذه المكارم تتماشى مع قيم الإسلام الجليلة ممَّا يعكس سلامة الفطرة عند هذا الرجل، ويبيِّن أن تعاليم الإسلام تهتدي لها الفطرة السويَّة التي لم تكدِّرها الذنوب ومتابعة الشياطين.

●كما تميَّزت هذه الوصية بالواقعية ومحاورة العقل، ولذلك اشتملت على كثير من عوامل الإقناع والتأثير، فنراه يسوق الأمر ويدلِّلُ عليه في أكثر من موضع كما مرَّ، وهذا يبيِّن مدي الصدق الفني عند هذا الرجل، ويكشف أنَّه ناصح لبيب أراد لقومه الرفعة والرشاد.

●هذ والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

المصادر والمراجع

- أساس البلاغة، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت: ٤٦٣هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، المؤلف: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ)، المحقق: علي محمد معوض – عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، سنة النشر: ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.
- أسرار البلاغة، المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت: ٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.
- الإصابة في تمييز الصحابة، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٥هـ.
- الأعلام لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت: ١٣٩٦هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر٢٠٠٢ م.
- أكثم بن صيفي ومأثوراته، تأليف: أد/ كاظم الظواهري، بدون تاريخ.
- الإيضاح في علوم البلاغة، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (ت: ٧٣٩هـ)، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت.
- البرهان في علم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت: ٧٩٤هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية.

- التحرير والتنوير، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.
- التشويق في الحديث النبوي طرقه وأغراضه، أد/ بسيوني فيود، الطبعة الأولى، مطبعة الحسين الإسلامية ١٤٢٤ه-١٩٩٣م.
- تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، المؤلف: محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي الميورقي الحَمِيدي (ت: ٤٨٨هـ)، المحقق: د: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، الناشر: مكتبة السنة – القاهرة – مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ه –١٩٩٥م.
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
- جمهرة الأمثال، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت.
- الجنى الداني في حروف المعاني، المؤلف: أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي (ت: ٧٤٩هـ)، المحقق: د فخر الدين قباوة –الأستاذ محمد نديم فاضل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
- خصائص التراكيب، أد/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط/٨ ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- دراسات منهجية في علم البديع، أد/ الشحات محمد أبو ستيت.
- دلائل الإعجاز المؤلف: أبو بكر عبد القاهر الجرجاني الدار (ت: ٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة: ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
- ديوان البحتري شرح حسن كامل الصيرفي، دار المعارف– مصر.
- ديوان حسان بن ثابت، شرح وتقديم الأستاذ: عبدأ علي مهنَّا، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت– لبنان، ط: الثانية ١٤١٤ه-١٩٩٤م.

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤلف: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري (ت: ٨٢١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
- العدول عن المصدر الصريح إلى المصدر المؤول في القرآن الكريم دراسة دلالية، د: إسلام محمد عبد السلام، بحث ضمن حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية- الحولية الخامسة والثلاثون ١٤٣٦هـ -٢٠١٤م.
- العقد الفريد المؤلف: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (ت: ٣٢٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ.
- علم البديع عند الشيخ محمد أبو موسى، كتبه وعلَّق عليه أد/ محمود توفيق سعد، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ٢٠١٩م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، المؤلف: أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت: ٤٦٣ هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧هـ.
- لسان العرب، المؤلف: جمال الدين ابن منظور الأنصاري (ت: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ه.
- مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (ت: ٥١٨هـ)، المحقق: محمد محيى الدين عبد الحميد، الناشر: دار المعرفة – بيروت، لبنان.
- المطول في شرح تلخيص المفتاح للتفتازاني، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث.
- معجم العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.
- معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الناشر: دار الدعوة.

- معرفة الصحابة، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، المؤلف: عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (ت: ٧٦١هـ)، المحقق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، الناشر: دار الفكر -دمشق، الطبعة: السادسة، ١٩٨٥م.
- المفردات في غريب القرآن، المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت: ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى- ١٤١٢هـ.
- مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- المقتصد في شرح الإيضاح، للإمام: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق د: كاظم بحر المرجان، دار الرشيد- العراق ١٩٨٢م.
- نثر الدر في المحاضرات، المؤلف: منصور بن الحسين الرازي، أبو سعد الآبى (ت: ٤٢١هـ)، المحقق: خالد عبد الغني محفوظ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (ت: ٦٠٦هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

فهـرس الموضـوعـات

م	الموضـــوع	الصفحة
١-	ملخص	٩٩١
٢-	Abstract	٩٩٢
٣-	المقدمة	٩٩٣
٤-	التمهيد	٩٩٦
٥-	أولا: الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي والحديث النبوي.	٩٩٦
٦-	ثانيا: السنة بيانا للقرآن	٩٩٧
٧-	ثالثا: المقصود بشهادة الجوارح	١٠٠٣
٨-	رابعا: الآيات والأحاديث محل الدراسة	١٠٠٤
٩-	المبحث الأول: دراسة بلاغية في شهادة الجوارح بين القرآن والحديث (تحليل موطن الشاهد).	١٠٠٧
١٠-	المبحث الثاني: شهادة الجوارح بين السياق والبناء.	١٠١٩
١١-	خاتمة	١٠٣٣
١٢-	فهرس المصادر والمراجع	١٠٣٥
١٣-	فهرس الموضوعات	١٠٣٨